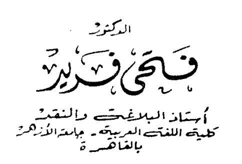


الدكتور

فتحي فريد

أستاذ البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر
بالقاهرة

من أسرار

المغفرة والاستغفار

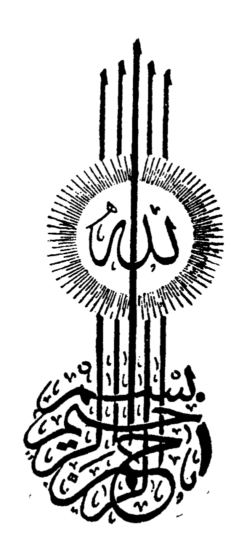
في

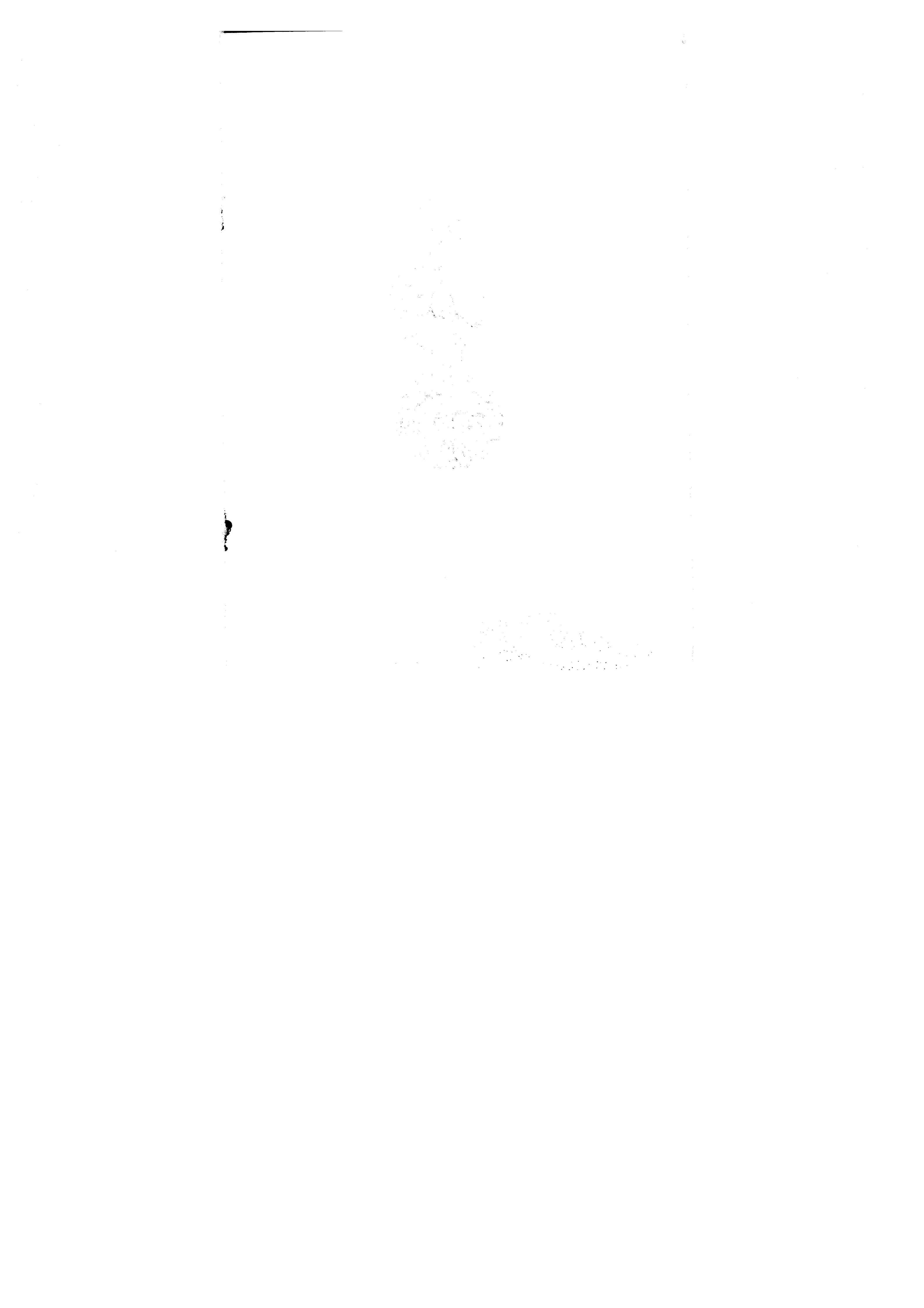
القرآن الكريم

١٩٩٣ م - ١٤١٣ هـ



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة





بسم الله الرحمن الرحيم

« لايكلف الله نفسا الا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو اخطانا ربنا ولاتحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مـــالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »

صدق الله العظيم

سورة البقرة : ٢٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم رسله سيدنا محمد المبعوث رحمة وهداية للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد ...

فقد فضل الله الانسان علي جميع خلقه بما انعم عليه من البيان والعقل ومن الرسل الكرام عليهم السلام الذين يأخذون بيده الى النجاة والفلاح ويحددون له الخير والشر والمنافع والضار ، لذلك وجب على الانسان أن يكون على الدوام مشغولا بعبادة الله وذكره حمدا له وشكرا على ما أولاه من نعم ، وباستغفاره من ذنوبه ومن تقصيره فى واجب الحمد والشكر له سبحانه .

ولما كان استغفار العبد ربه دعاء بطلب المغفرة ، وذكرا له ، وشكرا على نعمه ،واعتذارا عن التقصير فيما يجب عليه نحو ربه ، وتواضعا منه لربه ، وتنقية لقلبه من الغل والحقد والحسد ، وتطهيرا له من الذنوب والآثام توجهنا للتأمل في مواقعه ومعانيه مع المغفرة التى تتصل به اتصال المسبب بالسبب والنتيجة بالمقدمة من خلال آى الذكر الحكيم وقد اعتمد منهجنا فى ذلك على تتبع معظم ماورد عن المغفرة والاستغفار فى القرآن الكريم وجمع كل مايدور من آياته حول معنى

واحد أو موقف محدد فى فصل مستقل ليكون عملنا بذلك أقـــرب الى الناحية الموضوعية مع توضيح المعنـي العـام للآيات التى تدور حول ذلك الموقف وتحديد المقصود من - المغفرة » « والاستغفار » فى ذلك الموقف وتقديم سبب النزول وتوضيح بعض الأســرار اللغوية والبلاغية للمفردات والتراكيب مما يفيد الدارس والقارىء فى تفهم واستشـــعار اعجاز القرآن البلاغى والبون البعيد بينه وبين كلام العرب .

ولاندعى أنا استقصينا الموضـــوع فى جميع ماورد عنه ، فـان الاستقصاء ان أمكن تحققه فى غير القرآن يستحيل تحققه عند التأمل فى كلام الله التى تحمل ظاهرا وباطنا والتى لا تفنى عجائبها ولا تنفـد معانيها ولا ينضب عطاؤها للمتأملين وصدق الله : « **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا** » . الكهف : ١٠٩- وقد جاء هذا التتبع والتأمل فى مقدمة وتمهيد وبابين .

فتبرز المقدمة أهمية الموضوع وحاجة جميع المسلمين اليه وطريقة تناوله .. ويكشف التمهيد عن وقوع الناس فى الذنوب بحكم فطرتهـم وعن الاستغفار : قيمته وصيغه والاوقات التى يستحب فيها كســـبيل لتوبتهم الي الله تعالى اقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ فى ذلك .

ويأتى الباب الأول بعنوان : « من أســـرار المغفرة فى القــرآن الكريم » فى اربعة فصول - تحدث الأول عن : سبل المغفرة وهــي : الايمان بالله ، واتباع الرسل ، والتقوى ، والجهـــاد بالمال والنفس ، وخشية الله بالغيب .. وتحدث الفصل الثانى عن : المغفرة والصـفح وتحدث الفصل الثالث عن : « خصائص المغفرة الالهية » وذلك في أمور هى : خضوعها للمشيئة وعدم تقيدها بالأسباب الظاهرة ، وأنها تفضل منه ورحمة ، وأنها محكومة بميزان العدالة المطلقة ، وشـــاملة للجن

والانس ، وأهل الجنة فى الآخرة ، وأنه تعالى أهل للمغفرة – وتحدث الفصل الرابع عن بعض المواقف التى يعلم الله فيهـا عباده ان يسألوه المغفرة : فى الدنيا والآخرة ، وعند نزول البلاء ، وبذا ينتهي البـاب الأول ٠

وجاء الباب الثانى بعنوان : « من أسرار الاستغفار فى القـرآن الكريم » فى ستة فصول تحدث الفصل الأول منها عن : « أمور تتعلق بالاستغفار » وهى : حقيقة الاستغفار ، والمســارعة بالتوبة والمداومة عليها ، واستغفار المتقين ٠٠ وتحدث الفصل الثاني عن : اســتغفار الرسل عليهم السلام ودعوتهم الى الاستغفار ٠٠ وتحدث الفصل الثالث عن : « استغفار الملائكة ، وتحدث الفصل الرابع عن : استغفار المؤمنين بعضهم لبعض ، وتحدث الفصل الخـــامس عن : حقوق العباد وكيفية الاستغفار منها ، وتحدث الفصل الســادس عن : النهى عن الاســتغفار للمشركين والمنافقين ، وتحدث الفصل السابع عن : فضائل الاستغفار – وبذا ينتهى الباب الثانى ٠

وقد اعتمدنا علي المصحف الشريف فى تتبع الآيات – وجمعها ، وعلى أمهات كتب التفسير فى الاستعانة بآراء المفسرين ، وعلى كتــب الصحاح فيما اشتمل عليه البحث من أحاديثه ﷺ ٠

والله نسال أن يجعل ذلك خالصــا لوجهه الكريـــم وأن ينفع به المسلمين ٠ والحمد لله رب العالمين ٠

المؤلــف

تمهيد

« كل بني آدم خطاؤون »

خلق الله الانسان لعبادته وحده مصداقا لقوله سبحانه : « **وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون ٠ ما أريد منهم من رزق وما اريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » الذاريات** : ٥٦ ــ ٥٨ ، بل ان جميع ماخلق الله يعبده سبحانه ويذكره ويسبحه وكل له طريقته فى ذلك مصداقا لقوله سبحانه : « **وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا** » الاسراء : ٤٤ ٠

وقد فضل الله الانسان وكرمه علي جميع خلقه بما انعم عليه من الفكر والبيان ، وجعله فى جهاد دائم بين نوازع الخير فى نفسه ونوازع الشر فان غلب جانب الخير اقترب الانسان من الملائكة ، وان غلب جانب الشر اقترب من الشياطين على حد مايقوله الامام الغزالى رحمه الله « الشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فاذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، اذ لايثبت احدهما للآخر لانهما ضدان فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة » (١) ٠

فجميع بنى آدم يقعون في الأخطاء بحكم فطرتهم التى فطرهم الله عليها مع التفاوت بينهم فى ذلك على قدر مراتبهم ومنازلهم على حد قول الغزالى ايضا : « وليس في الوجود آدمى الا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة علي غريزته التى هى عدة الملائكة فكان الرجوع عما سبق اليه على مساعدة الشهوات ضروريا

(١) الغزالى : احياء علوم الدين ٢٠٨٢/١١ ٠

فى حق كل انسان ، نبيا كان أو غبيا ، فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام ، بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس الانس لا يمكن فرض خلافه ما لم تتبدل السنة الالهية التى لا مطمع فى تبديلها » .. حتى الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم بحكم هذا الناموس الالهي وبحكم كونهم من البشر يقعون فى الأخطاء غير أن أخطاءهم ليست كأخطاء غيرهم من البشر ، انها أخطاء بالنسبة لهم ولعظم قدرهم عند الله وشدة مؤاخذته لهم وبالتأمل فيها نتبين أنها تعد حسنات عند غيرهم وذلك من باب : « حسنات الابرار سيئات المقربين » وقد وضحنا ذلك فى الجانب المتعلق باستغفار الرسل عليهم الصلاة والسلام . وحيث انه لامفر للانسان من الوقوع فى الخطأ وارتكاب الذنوب المباشرة وغير المباشرة كوسوسة الشيطان ، والهم بقلبه ببعض الذنوب ، والغفلة عن ذكر الله فان عليه أن يكون دائم التوبة والاستغفار فى جميع الأوقات وليس فى وقت معين أو ساعات محددة ، ولذلك يذكر الغزالى أن الانسان ينبغي عليه أن يتوب الى الله عن جميع مامضى من عمره من أيام وساعات فى غير طاعة الله تعالى وذكره ، وأن تكون توبته مع كل نفس من انفاسه ، وذلك فى قوله : « ان لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك في طريق الله تعالى فى كل نفس من انفاسه ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة ، فان الانسان العاقل اذا ضاعت منه جوهرة نفيسة بكى عليها لا محالة ، ولو كان ضياعها سببا فى هلاكه لاشتد بكاؤه ، وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة لاخلف لها ولا بدل منها ، فانها صالحة لأن توصلك الى سعادة الأبد ، وتنقذك من شقاوة الابد ، فاذا ضعيتها فى الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا » وان صرفتها الى معصية هلكت هلاكا فاحشا » (١) .

---

(١) احياء علوم الدين : ٢٠٨٧/١١ .

الصغائر التى تصير كبائـر :

ومن رحمة الله تعالى بعبـــاده أنه يغفر لهـم ذنوبهم الصـــغائر باجتنابهم الكبائر منها مصداقا لقوله ﷺ فيما رواه مسلم « الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن اذا اجتنبت الكبائر » ، وينبغي أن يتنبه المسلم الى أن الذنب الصغير قـد يصير عند الله كبيرا بأمور منها :

١ - **الاصرار والمواظبة ، ولذلك قيل :** لاصـغيرة مع الاصـــرار ولا كبيرة مع الاستغفار ، فالاصرار على الذنب الصغير والمداومة عليـه يجعله كبيرا .

٢ - **استصغار الانسان لذنبه :** فان الذنب اذا استعظمه صـاحبه صغر عند الله واذا استصغره كان عند الله كبيرا ، وقد جاء فى الخبر : المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كـذباب مـر على أنفه فأطاره » .

٣ - **السرور بالصغيرة والفرح والمباهاة بها :** وعد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة .

٤ - **التهاون بستر الله وامهاله :** فيظن أن تمكنه من المعاصى وعدم المعاقبة العاجلة من الله عليها عناية من الله به ، وذلك لأمنه مكر الله ، وجهله انه يمهـــل من الله بالعقاب ليزداد اثمـــا ، ويقول تعالـــى : « ... **ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنـــا الله بما نقول حسبهم جهنـم يصلونها فبئس المصير** »

المجادلة : ٨ .

٥ - **اتيان الذنب واظهاره والتحدث به أمام الناس ترغيبا لهـم فيه وتحريكا لنوازع الشر عندهم ، فتضاعف ذنوبه ، وفى الخبر :**

« كل الناس معا فى الا المجاهرين ، يبيت أحدهـــم على ذنب قـد

ستره الله عليه ، فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه » وقال بعضهم : لاتذنب فان كان ولابد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين ، ولذلك قال تعالى : « **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ...** » الآية (١) وقال بعض السلف « ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه » .

٦ — **أن يكون صاحب الذنب عالما يقتدى الناس به :** حيث يموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى الناس آمادا طويلة ، وفى الخبر : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لاينقص من أوزارهم شيئا « وقال تعالى : « ... **ونكتب ما قدموا وآثارهم** » (٢) .

والآثار : ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل وقال ابن عباس : ويل للعالم من الاتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها فى الافاق ، وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق اهلها ... بهذا يتضح أن العلماء فى خطر كبير وأن مهمتهم صعبة ، فعليهم وظيفتان :

احداهما : ترك الذنب .. والأخرى : اخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب ، يتضاعف كذلك ثوابهم على الحسنات اذا اتبعوا » . (٣)

التوبة والاستغفار فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم :

وسيدنا رسول الله ﷺ يعد من غير شك امام التائبين وسيد المستغفرين ، حيث كان فى جميع أوقاته وكل أحواله مشغولا بذكر الله واستغفاره وعبادته الى الحد الذى جعل أم المؤمنين السيدة عائشة رضى

---

(١) سورة التوبة : ٦٧ .
(٢) سورة يس : ١٢ .
(٣) احياء علوم الدين ١١/٢١٢١ ، ٢١٢٢ .

الله عنها تساله ان يخفف من عبادته وذكره واستغفاره مذكرة له بغفران الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون رده عليها : « أفــلا أكون عبدا شكورا » فيعلمنا عليه الصلاة والسلام بذلك أن العبد ينبغي عليه أن يكون دائما فى معية الله وفى حضـــرته بذكره له واستغفـاره شــكرا منه لله تعالى على ما أولى من نعم ، وليس بلازم أن يكون اســتغفارا من ذنوب له مباشرة أو غير مباشرة ٠

وبالتامل في كلامه ﷺ عن التوبة والاستغفار يتبين لنا انه يدور حول المواقف التى وردت فى كلامه تعالى فمن هذه المواقف :

١ – الوقوع فى الذنب من فطرة الله التى خلق الناس عليها ، فقد روى مسلم عن ابي هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : والذى نفســى بيده ، لو لــم تذنبوا لذهب الله بكـم ، ولجاء بقـوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم ٠ وروى الترمذى وابن ماجة والحــاكم عن انس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ٠

٢ – ترحيب الله بعبده التائب ، فقد روى مسلم والنسائى عن ابى موسي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ٠٠ وروى البخارى ومسلم عن ابن مسعود وانس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« لله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض ٠٠ دوية [١] مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام فاستيقظ وقـد ذهبت راحلته فطلبها حتى اذا اشتد عليه الحر والعطش أو ماشاء الله

---

(١) الصحراء المقفرة ٠

قال : أرجع الى مكانى الذى كنت فيه فانام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فاذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فالله تعالي أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته · (١)

٣ ـ مغفرة الله ذنوب التائبين مهما بلغ عددها ووصل حجمها ، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال : أنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال نعم من يحول بينك وبين التوبة ، انطلق الى أرض كذا وكذا فان بها اناسايعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولاترجع الى ارضك فانها أرض سوء ، فانطلق حتي اذا نصف الطريق اتاه ملك الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه الى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : انه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا مابين الأرضين فالى أيتهما كان ادني فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى الى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة ، وفى رواية : فكان الى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها ، وفى رواية : فأوحى الله الى هذه أن تباعدى ، والى هذه أن تقربى ، وقال : قيسوا بينهما فوجدوه الى هذه أقرب بشبر فغفر له » (٢) ·

٤ ـ قبول توبة العبد أو عدم قبولها مرده الي الله وحده ، فقد اخرج ابو داود فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كان رجلان فى بني اسرائيل متواخيين ، فكان احدهما يذنب والآخر مجتهد فى العبادة ، فكان لا يزال المجتهد

---

(١) الترغيب والترهيب ١٠٥/٤ ·
(٢) الترغيب والترهيب ١٠١/٤ ·

يرى الآخر على الذنب فيقول له : اقصر ، فقال : خلنى وربي ابعثت على رقيبا ؟ فقال والله لايغفر الله لك - أولايدخلك الله الجنة ، فقبض ارواحهما فاجتمعا عند رب العالمين ، فقال أى الله « لهذا المجتهد أكنت عالما بى ؟ أو كنت على مافى يدى قادرا ؟ وقال .. للمذنب : اذهب فادخل الجنة برحمتى ، وقال للآخر : اذهب الى النار .

قال ابو هريرة : والذى نفسى بيده ، لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخـرته (١) .

٥ - المبادرة والاسراع بالتوبة وترك التسويف والتأخير حذرا من مفاجأة الموت فقد روى ابن ماجة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يأيها الناس : توبوا الى الله قبل ان تموتوا ،وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا . وروى الاصبهاني عن بن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : النادم ينتظر من الله الرحمة ، ... والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله ان كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسـوء عمله ، وانما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان فاحسنوا السير عليهما الى الآخرة ، واحذروا التسويف فان الموت ياتي بغتة ، ولا يغترن احدكم بحلم الله عز وجل ، فان الجنة والنار أقرب الى أحدكم من شراك نعـــله (٢) ، ثـم قـرأ ﷺ : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره » .

---

(١) الأحاديث القدسية ٥١/١ طبعة رابعة المجلس الأعلى للشئون - الاسلامية .

(٢) أقرب شىء يملكه ، ومعنى الشراك : أحد سيور النعل التى تكون علي وجهها .

٦ ـ التوبة تجلب السعادة والبهجة لصاحبها ، وتفرج عنه كرب الذنوب ، وهموم الاثام فقد روى احمد والطبرانى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ »

« ان مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيق قد خنقته ، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى ، حتى تخرج الى الأرض »(١) .

٧ ـ الحدود والعقوبات تكفر الذنوب وتمحو الخطايا ، فقد روى مسلم عن عمران بن الحصين رضى الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا ، فقالت : يارسول الله أصبت حدا فاقمه على ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : احسن اليها ، فاذا وضعت فائتنى بها ، ففعل ، فامر بها نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل .

٨ ـ التوبة تمحو الذنوب ، فقد روى ابن ماجة والطبراني عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : التائب من الذنب كمن لا ذنب له (٢) .

موجبات المغفرة :

الدعاء والاستغفار والتوحيد أمور ثلاثة تحقق لأصحابها الفوز بمغفرة الله تعالى ، فقد روى الترمذى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله تعالي : يابن آدم : انك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ـ يابن آدم :

---

(١) الترغيب والترهيب ١٠٥/٤ .
(٢) المرجع السابق ٩٧/٤ .

لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يابن آدم : لو اتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شــيئا لأتيتك بقرابها مغفرة ٠

١ ـ الدعاء مع رجاء الاجابة :

الدعاء الصحيح يجيبه الله تعالى على احد وجوه ـ ثلاثة : بتعجيل الاجابة أو بادخارها لصاحب الدعاء ، أو أن يكف عنه من السوء بمثـل دعوته ، فقد أخرج ابن عبد البر عن أبي ســعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعـة رحم الله الا اعطاه الله بها احدى ثلاث : اما أن يعجل له دعوته واما ان يدخرها له ، واما ان يكف عنه من السوء بمثلها ، قالوا : اذا نكثر ؟ قال : الله أكثر ٠

ومن أهم الشروط التى ينبغى توافرها للدعاء :

١ ـ استحضار القلب وعدم الغفلة ٠

٢ ـ ان يكون الداعى واثقا ومتيقنا من اجابة الله دعاءه ٠

٣ ـ أن لايتعجل الداعى اجابة دعائه ٠

٤ ـ ان يكون المدعو به من الأمور الجائزة ، فلا يكون الدعاء باثـم أو معصية أو قطيعة رحـــم ٠

٥ ـ أن يكون طعام الداعى ومشربه وملبسه ٠٠٠ الخ حــلالا ٠

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال : « لايزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو معصية أو قطيعة رحم ما لم يستعجل ـ قيـل : يارســول الله ما الاستعجال ؟ قال : يقول : قد دعوت وقد دعوت فلم يستجب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعـاء (١) ٠

---

(١) أى ينقطع عن الدعاء ويمله ٠

وسأل سيدنا عبد الله بن مسعود رسول الله أن يجعله مستجاب الدعاء فقال له عليه الصلاة والسلام : أطلب مطعمك تكن مستجاب الدعاء . فالدعاء مع التيقن من الاجابة من موجبات مغفرته تعالى : « انك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ماكان منك ولا ابالي » . أى غفرت لك مهما بلغت ذنوبك من الكم والكيف ، فقد ورد فى الصحيح عنه ﷺ : « اذا دعا احدكم فليعظم الرغبة ، فان الله لايتعاظمه شيء » فذنوب العباد وان عظمت فانها صغيرة الي جوار عفو الله ومغفرته ، وقد روى الحاكم عن جابر أن رجلا جاء الى النبى ﷺ وهو يقول : « واذنوباه مرتين أو ثلاثا ، فقال النبى ﷺ : قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ، ورحمتك أرجى عندى من عملي ، فقالها ثم قال له : عد فعاد ، ثم قال له : عد فعاد ، فقال له : قم قد غفر الله لك »(١) .

٢ - توحيد الله وعدم الاشراك به :

« يابن آدم : انك لو اتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لاتيتك بقرابها مغفرة » .

ويقصد بالتوحيد : توحيد الله تعالي وعدم الاشراك به وهو الأصل والأساس الذى تعتمد وتقوم عليه جميع الاعمال ، قال تعالى : « **ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما** »(٢) ، فمن جاء مع توحيده الله تعالى بقراب الأرض « أى ملؤها » أو ما يقارب ملأها خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ، وذلك بمشيئة الله عز وجل فان شاء غفر له وان شاء أخذه بذنوبه .

---

(١) جامع العلوم والحكم : ابن رجب ص : ٣٤٣ .
(٢) سورة النساء ٤٨ .

٣ ـ الاستغفار :

« يابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك » والاستغفار الصحيح هو مايكون مقترنا بالتوبة ومصحوبا بالعزم والاصرار على ترك الذنوب ، فيكون باللسان والقلب معا (١) ، ولذلك يسمى بعضهم الاستغفار باللســـان فقط توبة الكذابين ، وتقول رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج الي استغفار كثير .

ومع ذلك فان الاستغفار باللسان فقط افضل من الصمت أو الكلام بغير ذكر الله وذلك من جملة معانى **قوله تعالى : « فان الله لا يضيع اجر المحسنين »** (٢) وقوله « ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما » (٣) . كما ينبغى أن يتوافر للاســـتغفار مايتوافر للدعاء من شروط حيث ان الاستغفار من وجوه الدعاء ، ومن أهم تلك الشروط : التيقن من الاجابة ، فعن أبى ذر رضي الله عنــه قال : قال رسول الله عز وجل فيما رواه عن رب العزة : يابن آدم : كلكم مذنب الا من عافيت (٤) ، (٥) فاستغفرونى اغفر لكـم ، وكلكم فقير الا من اغنيت فاسالونى اعطكم ، وكلكم ضال الا من هديت فاسالونى الهدى أهدكم ، ومن استغفرنى وهو يعلم أنى ذو قدرة على ان اغفر له غفرت له ولا أبالى ، ولو ان أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أشقى رجل واحد منكم مانقص ذلك من سلطانى مثل جناح بعوضة ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا علي أتقى قلب رجل واحد منكم مازادوا فى سلطانى مثل جناح

---

(١) احياء علوم الدين ٢١٤٦/١٢ .
(٢) يوسف : ٩٠ .
(٣) النساء : ٤٠
(٤) درة الناصحين : عثمان الخويرى ص : ٢١٦ .
(٥) مقصر في حقوق الله ازاء ما انعمت به عليه الا من سامحت :

بعوضة ولو ان أولكم واخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم سالونى حتى تنتهى مسالة كل واحد منهم فاعطيتهم ما سالونى مانقص ذلك مما عندى كمغرز ابرة لو غمسـها احدكم فى البحر ، وذلك أنى جواد ماجد واحد – عطائى كلام ، وعذابى كلام ، انما أمرى لشىء اذا اردته ان اقول له كن فيكون . رواه مسلم والترمذى وبن ماجة والبيهقى (١) .

فضائل الاسـتغفار :

رأينا فيما سبق ارتباط الاستغفار بالمغفرة كارتباط السـبب – بالمسبب على الرغم مما هو واضح من أن المغفرة خاضـعة لمشـيئة الله وارادته وغير مرتبطة بالأسباب ارتباطا واحدا .

أما فضائل الاستغفار على ضوء ماورد فى القرآن والسنة فانهـا أكثر من أن تحصى ، ونعد منها :

١ – أن الاستغفار امان للامة ، فقد روى الترمذى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : انـزل الله امانين لأمتى : **« وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٢)** فاذا مضيت تركت فيهم الاستغفار الى يوم القيامة .

٢ – انه من اقوى السبل لمجاهدة الشيطان ، فعن ابى بكر رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : عليكم بلا اله الا الله والاستغفار ، فاكثروا منهما فان ابليس عليه اللعنة قال : أهلكت الناس بالذنوب والمعاصى ، واهلكونى بلا آله الا الله .. والاستغفار ،فلما رأيت ذلك اهلكتهم بالهوى يحسبون انهم مهتدون (٣) .

---

(١) الترغيب والترهيب – المنذرى – دار الفكر ٢/٢٦٦ .
(٢) الانفال : ٣٣ .
(٣) درة الناصحين – عثمان الخويرى – دار احياء الكتب العربية ص : ٤٠ .

وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قال ابليس : وعزتك لا أبرح اغوى عبادى مادامت ارواحهم فى أجسادهم ، فقال : وعزتى وجلالى لا ازال اغفر لهم ما استغفرونى ، رواه أحمد والحاكم [١] .

٣ ـ أن الذنوب داء والاستغفار دواؤها . عن انس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ الا ادلكم على دائكم ودوائكم الا ان داءكم الذنوب ودواءكم الاستغفار . رواه البيهقي [٢] ـ وقال قتادة : القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، اما داؤكم فالذنوب واما دواؤكم فالاستغفار ، وقال على كرم الله وجهه : العجب بممن يهلك ومعه النجاة ، قيل : وماهى ؟ قال الاستغفار .

الاحياء ٥٦١/٣ .

٤ ـ يزيل الاستغفار ما فى القلوب من ران [٣] ـ عن ابى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ان العبد اذا اخطا خطيئة نكتت فى قلبه نكته [٤] ، فان هو نزع فاستغفر صقلت ، فان عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى : « كلا بل ران علي قلوبهم ماكانوا يكسبون » ـ رواه ـ الترمذى وقال حديث حسن صحيح ، والنسائى وبن ماجة والحاكم .

وعن انس رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ان .. للقلوب صدأ كصدأ النحاس ، وجلاؤها الاستغفار » رواه البيهقى [٥] .

---

(١) الترغيب والترهيب ٤٦٧/٢ .
(٢) الترغيب والترهيب ٤٦٨/٢ .
(٣) الذنوب المتراكمة فوق بعضها فتحجب القلب عن انوار الله .
(٤) أى اثرت قليلا كالنقطة .
(٥) الترغيب والترهيب ٤٦٩/٢ .

٥ — الاستغفار يفرج الهم ويوسع الرزق :

قال تعالى : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا ... يوم كبير » وقال على لسان هود : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا .. مجرمين .. » وقال على لسان نوح : « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا .. انهارا » وروى ابوداود وبن ماجة عن بن عباس رضى الله عنهما عنه ﷺ : من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ، ومن كل هم فرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب (١) .

وورد فى فتح البارى ان رجلا شكا الى الحسن البصرى الجدب فقال : (استغفر الله ، وشكا اليه آخر الفقر فقال : استغفر الله وشكا اليه آخر جفاف بستانه فقال : استغفر الله ، وشكا اليه آخر عدم الولد فقال : استغفر الله ، ثم تلا عليهم هذه الآية :

فقلت : استغفروا ربكم ... انهارا » (٢) .

افضل أوقات الاستغفار :

وعلى الرغم من أن الاستغفار مطلوب فى كل الأوقات وفى جميع الأحوال الا أن هناك أوقات معينة يكون فيها اكثر قبولا وذلك فى ختام الصلوات ، وعند النوم ، وفى الثلث الأخير من الليل وفى ليلة النصف من شعبان ، فقد روى أبو يعلى عن البراء رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : من أستغفر الله دبر كل صلاة ثلاث مرات فقال : استغفر الله الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأتوب اليه غفرت . ذنوبه وان كان فر من الزحف (٣) .

---

(١) الدعاء المستجاب أحمد عبد الجواد : ص ١٧ .
(٢) الترغيب والترهيب ٤٧٣/٢ .
(٣) الدعاء المستجاب من الحديث والكتاب : احمد عبد الجواد ص ١٧ .

وروى الامام احمد والترمذى عن ابى سعيد عنه ﷺ : من قال حين يأوى الى فراشه : اســـتغفر الله الذى لا إله الا هو الحى القيوم وأتوب اليه ثلاث مرات غفر الله ذنوبه ، وان كانت مثل زبد البحر ، وان كانت عدد ورق الشجر ، وان كانت عدد رمل عالج ، وان كانت عدد ايام الدنيا (١) .

وروى البخارى عن ابى هريرة ان رسول الله ﷺ قال : ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة الى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فاستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فاغفر له .

واخرج ابن ماجة فى سننه ـ باب ماجاء فى ليلة النصف من شعبان عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رســـول الله ﷺ : اذا كان ليلة النصف ممن شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها ، فان الله ينزل فيها لغروب الشمس الى سماء الدنيا فيقول : الا من مستغفر فاغفر له ، الا مسترزق رزقة ، الا مبتلى فاعافيه ؟ الا كذا ؟ الا كذا ؟ حتى يطلع الفجر (٢) .

وينبغى على المسلم ان يداوم على الاستغفار فى كل الاوقات وفى جميع الاحوال اقتداء بسيدنا رســـول الله حيث ان الاســـتغفار ذكر لله ودعاء له ، والمسلم ينبغى أن يكون لسانه دائما رطبا بذكر الله ويذكر لنا ابن قيم الجوزية « أن رسول الله ﷺ وقد ورد أنه كان يستغفر الله احيانا سبعين واحيانا مائـــة مرة . (٣) انـه ماكان يترك ذكـــر الله واستغفاره لحظة من ليل أو نهار فكان دائم الذكر والاستغفار في يقظته

(١) المرجع السابق .
(٢) الاحاديث القدسية ٧٢/١ ط المجلس الأعلى .
(٣) ابن قيم الجوزية ٢٠/٢ .

ومنامه وفى صمته وكلامه يقول ابن القيم « فصل فى هديه ﷺ فى الذكر » : كان النبى ﷺ اكمل الخلق ذكر الله عز وجل بل كان كلامه كله فى ذكر الله وما والاه ، وكان امره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله ، واخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وافعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له ، وسؤاله ودعاؤه اياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له ، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه فكان ذاكرا لله فى كل احيانه وعلى جميع احواله وكان ذكره لله يجرى مع انفاسه قائما وقاعدا وعلى جنبه وفى مشيه وركوبه ومسيره ونزوله وظعنه واقامته » .

صيغ الاستغفار :

وللاستغفار صيغ متعددة نأخذها من استغفاره ﷺ منها عدا ماسبق : « سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب اليه ، فعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، واستغفر الله واتوب اليه فقلت يارسول الله ، اراك تكثر من قول : سبحان الله وبحمده ، استغفر الله وأتوب اليه - فقال : خبرنى ربى عز وجل أنى سارى علامة فى امتى فاذا رأيتها اكثرت من قول : سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب اليه فقد رأيتها : « اذا جاء نصر الله .. توابا » (١) ، رواه مسلم .

ومنها : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ورحمتك ارجى عندى من عملى ، فقالها ثم قال : عد فعاد ، ثم قال : عد فعاد ، ثم قال : قم فقد غفر الله لك . رواه الحاكم (٢) .

ومنها : استغفر الله العظيم التواب الرحيم الذى لا اله الا هو الحى

---

(١) الاحاديث القدسية ط رابعة المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ٢٣/١ .

(٢) الترغيب والترهيب ٤٧٢/٢ .

القيوم بديع السموات والارض وما بينهما من جميع جرمى وإسرافى على نفسى واتوب اليه واساله التوبة والمغفرة والنجاة من النار ، لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . (١)

ومنها : استغفر الله الذى لا اله الا هو الحى القيوم وأتوب اليه فقد روى ابوداود والترمذى عن بلال يسار بن زيد رضى الله عنه قال : حدثنى أبى عن جدى انه سمع النبى ﷺ يقول : من قال استغفر الله الذى لا آله الا هو الحى القيوم واتوب اليه غفر له وان كان فر من الزحف (٢) .

وممنه : مارواه ابن قيم الجوزية فى حديثه عن ذكرة ﷺ عن عائشة قالت : « كان اذا هب من الليل كبر عشرا وحمد الله عشرا ، وقال سبحان الله وبحمده وسبحان الملك القدوس عشرا ، واستغفر الله عشرا ، وهلل عشرا ثم قال : اللهم انى اعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشرا ثم يستفتح الصلاة ، وقالت ايضا : كان اذا استيقظ من الليل قال : لا اله الا أنت سبحانك ، اللهم استغفرك لذنبى واسالك رحمتك . اللهم زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد اذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة انك أنت الوهاب » ، ذكرهما ابوداود واخبر أن من استيقظ من الليل فقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، الحمد لله وسبحان الله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلى ا لعظيم ثم قال : اللهم اغفر لى او دعاء آخر استجيب له فان توضأ وصلى قبلت صلاته » رواه البخارى . (٢) — (٣)

---

(١) صيغة الاستغفار فى الطريقة الخليلية .
(٢) الترغيب والترهيب ٢/٤٧٠ .
(٣) ابن قيم الجوزية ٢/٢٠ .

أفضل صيغ الاستغفار – سيد الاستغفار :

وأفضل أنواع الاستغفار : أن يبدأ العبد بالثناء على ربه ثم يثنى بالاعتراف بذنبه ، ثم يسأل الله المغفرة ، كما فى حديث البخارى الذى رواه شداد بن أوس عنه ﷺ قال : « .. سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا اله الا أنت .. خلقتنى وانا عبدك ، وانا على عهدك ووعدك ما استطعت ، اعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فانه لايغفر الذنوب الا أنت ، قال : ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة » .

ويراد بقوله : « سيد الاستغفار » أى أفضل صيغ الاستغفار وأكثرها نفعا ، والسيد فى الأصل : الرئيس الذى يقصد فى الحوائج ويرجع اليه فى الأمور ، ولما كان هذا الدعاء جامعا لمعانى التوبة كلها استعير له اسم السيد .

« وانا عبدك » أى وانا عابد لك .

« وانا على عهدك ووعدك » أى انا على ماعهدتك عليه وواعدتك من الايمان بك واخلاص الطاعة لك ما استطعت من ذلك .

وقيل : يراد بالعهد : ما أخذه الله على عباده حين اخرجهم أمثال الذر واشهدهم على انفسهم : «الست بربكم» فاقروا له بالربوبية واذعنوا له بالوحدانية « قالوا بلى شهدنا » .

وبالوعد : ما قال على لسان نبيه : « ان من مات لايشرك بالله – شيئا وادى ما افترض عليه ان يدخله الجنة » .

« ما استطعت » تفيد تلك العبارة : الاعتراف بالعجز والقصور عن القيام بجميع حقوق الله تعالى ، والاعلام بأن احدا لايقدر على

الاتيان بجميع مايجب عليه لله ، ولا الوفاء بكمال الطاعات والشكر على النعم . فرفق الله بعباده فلم يكلفهم من ذلك الا ما وسعهم .

« أبوء لك بنعمتك على » أى أعترف من البواء ومعناه : اللزوم ومنه : بوأه الله منزلا اذا اسكنه فكأنه الزمه به .

« وأبوء لك بذنبى » أى إعترف بذلك – اعترف أولا بنعم الله عليه ثم اعترف ثانيا بالتقصير فى اداء الشكر الواجب عليه ثـم بالغ فعده ذنبا مبالغه فى التقصير ، وقيل : يحتمل أن يكون قولـــه : « أبوء لك بذنبى » اعتراف بوقوع الذنب مطلقا ليصبح الاستغفار منه ، لا انه عـد ما قصر فيه من اداء شكر النعم ذنبا « فاغفر لى انه لايغفر الذنوب الا أنت » .

يؤخذ من ذلك : ان من اعتـــرف بذنبه غفر له . » « من قالها موقنا بها » أى مخلصا من قلبه مصدقا بثوابها وتعد تلك الصيغة أفضل صيغ الاستغفار لاشتمالها على :

١ – الاقـــرار لله وحده بالربوبيه والعبودية ، والاعتراف بانه الخالق .

٢ – الاقرار بالعهد الذى اخذه الله على العبد ، والرجـــاء بما وعده بـــه .

٣ – الاستعاذة من شر ماجنى العبد على نفسه من ذنوبه .

٤ – اضافة النعم الى موجدها الحقيقى وهو الله تعالى .

٥ – الاعتراف بان غفران الذنوب من خصوصيات الله وحده .

واستغفار المؤمن ربه مطلوب فى كل الاوقات وفى جميع الاحوال ولو توضا المستغفر وصلى ركعتين ثم اخذ فى الاستغفار كان ذلك ادعى لقبول الله استغفاره ، فعن على رضى الله عنه قال كنت رجلا اذا سمعت

من رسول الله ﷺ حديثا نفعنى الله منه بما شاء ان ينفعنى ، واذا حدثنى احد من اصحابه استحلفته فاذا حلف لى صدقته ، قال : وحدثنى أبو بكر ، وصدق ابو بكر رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ، ثم يقوم ، فيصلى ركعتين ، ثم يستغفر الله الا غفر له ، ثم قرأ هذه الآية : « **والذين اذا فعلوا فاحشة ذكروا الله الى آخر الآية** ٠٠ رواه ابو داود ٠ (١) ٠

استغفار المؤمن لأخيه :

وحيث ان الاستغفار دعاء الى الله بالتوبة ، واذا دعا المؤمن لأخيه بظهر الغيب وكل الله له ملكا يقول له : ولك بمثل ماتدعو لأخيك كما ورد فى الحديث الشريف ، فان المؤمن اذا شمل باستغفاره المؤمنين والمؤمنات زاد ذلك من ثوابه ورفع من قدره عند الله ، فقد روى الطبرانى عن عبادة رضى الله عنه قال : قال ﷺ من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب له بكل مؤمن ومؤمنه حسنة ، وروى الطبرانى ايضا عن ابى الدرداء رضى الله عنه قال : قال ﷺ من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كل يوم سبعا وعشرين مرة كان من الذين يستجاب لهم ويرزق بهم أهل الأرض ٠

ونختتم ذلك التمهيد بابيات للبوصيرى رحمه الله فى بردته الشريفه :

يقول رضى الله عنه فى التحذير من هوى النفس :

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها ... ان الطعام يقوى شهوه النهم

والنفس كالطفل ان تهمله شب على ... حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر ان توليه ... ان الهوى ماتولى يصم أو يصم

---

(١) سنن ابى داود تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ٨٦/٢ ٠

وراعها وهى فى الاعمال سـائمه ... وان هى استحلت المرعى فلا تسم
كـم حسـنت لـذه للمرء قاتلـة ... من حيث لم يدر ان السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصه شـر من التخـم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المحارم والـزم حميه النـدم
وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وان هما محضـناك النصـح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكمـا ... فانت تعرف كيد الخصم والحكـم
اسـتغفر الله من قـول بلا عمـل ... لقد نسـبت به نسـلا لذى عقـم
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت بـه ... وما استقمت فما قولى لك اسـتقم
ولاتـزودت قبـل المـوت نافلــه ... ولم اصل سوى فرض ولم أصـم

ويقول فى التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم :

اطعت غى الصبا فى الحالتين وما ... حصلت الا على الاثـام والنـدم
فيـا خسـاره نفس فى تجارتهـا ... لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسـم
ومن يبـع آجـلا منـه بعاجلــه ... يبن له الغبن فى بيع وفى سلـم

ويقول فى المناجاه وعرض الحاجات :

يانفس لاتقنطـى من زله عظمـت ... ان الكبـائر فى الغفران كاللـمم
لعـل رحمه ربى حين يقسـمها ... تاتى على حسب العصيان فى القسم

وبعد فقد وضحنا فى ذلك التمهيد : وقوع الانســان فى الذنوب بحكم فطرته ، ورحمة الله بعباده بمغفره ذنوبهم اذا صدقوا فى توبتهم واستغفارهم بالسنتهم وقلوبهم ، وتحدثنا عن صلة الاسـتغفار بكل من الدعاء والمغفرة ، وفضائله ، والأوقات التى يرجى قبوله فيها وذلك على هدى من كلامه ﷺ ، ونأخذ بعد ذلك فى تبين معانى واسـرار الاستغفار والمغفرر من خلال اى الذكر الحكيم مستهلين ذلك بتوضيح الأصل اللغوى لهما وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المغفرة والاستغفار فى اللغة :

قال صاحب لسان العرب فى مده : « غفر » الغفور ، الغفار جل ثناؤه ، وهما من أبنيه المبالغة ومعناهما الساتر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، وأصل الغفر : التغطيـة والستر وفى الحديث كان ﷺ اذا خرج من الخلاء قال : غفرانك ، - والغفران مصـدر وهو منصوب باضمار : أطلب ، وفى تخصيصه بذلك قولان : احدهما التوبة من تقصيره فى شكر النعم التى انعم بها عليه باطعامه وهضمه وتسهيل مخرجه فلجأ الى الاستغفار من التقصير .

وثانيهما : ترك الاستغفار وذكر الله تعالى مده قضاء حاجته فانه كان لا يترك ذكر الله بلسانه وقلبه الا عند قضاء الحاجة وكأنه رأى ذلك تقصيرا يتدارك بالاستغفار .

فالمادة تدور حول الستر ، ولذلك يقال لبيضه الحديد التى تستر الرأس : مغفر ، وتقول العرب : اصبغ ثوبك بالسواد فهو اغفر لوسخه اى اغطى له ، ومنه : غفر الله ذنوبه اي سترها ، وغفرت المتاع : جعلته فى الوعاء . والهمزه والسين والتاء للطلب ، فمعنى « استغفر الله » أسأله واطلب منه ستر ذنوبى (١) .

وقد تتبع الاستاذ / محمد فؤاد عبد الباقى « جميع الصيغ التى وردت من « غفر » فى القرآن الكريم فلم نر داعيا لسردها اكتفاء بما صنعه الاستاذ « فؤاد عبد الباقى » وتعويلا على ما نعرض له من الآيات التى ورد فيها الاستغفار » وما يشتق منه . (٢)

---

(١) لسان العرب مادة : غفر ٦/٣٢٩ ط الدار المصرية للتاليف والترجمة .

(٢) انظر : معجم الفاظ القرآن الكريم / محمد فؤاد عبد الباقى ط الهيئة المصرية للتاليف والنشر مادة : غفر ٢/٢٨٣ .

الباب الأول

من أســـرار المغفـــرة

فـــي

القـــرآن الكريـــــم

« ربنا اغفـر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب »
« ابراهيـم : ٤١ »

الفصل الأول

ســـبل المغفـــرة

ســبل المغفــرة

بالتأمل فى الآيات التى تحدثت عن المغفرة والاستغفار يتبين لنـا أن بعضها يحدد لنيل المغفرة من الله أسبابا من هـذه الأسـباب وتلك السـبل :

١ ـ الايمان بالله ٠ وذلك فى قوله تعالى : « **الذين يقولون ربنا اننـا امنـا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ٠ الصابرين والصـادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** » ٠

سورة آل عمران : ١٦ ، ١٧

٢ ـ اتباع الرسول (ص) ، وذلك فى قوله تعالى : « **قل ان كنتـم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** »

سورة آل عمران : ٣١

٣ ـ التقوى ، وقد جـاء ذلك فى قوله تعـالى : « **يأيها الذين امنـوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** » ٠

سورة الأنفال : ٢٩

٤ ـ الجهاد بالمال والنفس بعد الايمان بالله ورسوله ، وذلك فى قوله تعالى : « **يأيها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ٠ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سـبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ٠ يغفـر لكـم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ٠ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** » سورة الصف : ١٠ ـ ١٣ ٠

٥ – بذل الأموال الطيبة فى سبيل الله وابتغاء وجهه ، وذلك فى قوله :
« فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هـم المفلحون • ان تقرضـــوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم • عالـــم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » سورة التغابن : ١٤ – ١٨

٦ – خشية الله بالغيب ، وذلك فى قوله تعالى : **« ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجـر كبير » •**
(سورة الملك : ١)

٧ – عبادة الله والخوف منه وطاعة الرسل ، وذلك فى قوله تعـــالى على لسان نوح عليه السلام : **« قال يا قوم انى لكم نذير مبين • أن اعبدوا الله واتقـوه وأطيعون • يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخـركم الى أجل مسمى ، ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعملون »**
سورة نوح : ٢ – ٤

١ – الايمان بالله اصـل فى طلـب المغفرة :

ليس الدعاء بطلب المغفرة مختصا بأهل الذنوب المباشرة أو غـير المباشرة الذين يتوجهون الى الله بطلب المغفرة لها ، وانما يدعو المؤمن ، وكذلك المتقى ربـه دائما بطلب المغفرة ويكون الايمان والتقوى حينئذ من سبل اجابة الدعاء وتحقيق المغفرة ، والأساس الذى يستند اليه فى الدعاء وسؤال الله المغفرة وذلك ما تؤكـده الآية التالية عن صفات المتقين من عبـاد الله :

« الذين يقولون ربنا اننا امنا فاغفـر لنا ذنوبنا وقنا عـــذاب النـار »

ونلاحظ التسلسل فى الدعاء فقد بدأوا بالاخبار بأنهم مؤمنـون حيث ان الايمان أصل وأساس للتوجه بالدعاء ولا يراد بالخبر افـــادة المدعو وهو الله سبحانه أنهم مؤمنون لأن الله مطلع على قلوبهم وانما

يفيـد ذلك زيادة الرجاء والأمل فى قبول الدعاء ولاظهار أن ايمانهـم ناشىء من وفور الرغبـة وكمال النشاط ، وبدأوا الدعـاء بطلب المغفرة « فاغفر لنـا ذنوبنا » أى استرها علينـا بعفوك عنها وترك عقوبتنا ، ثـم ثنوا بطلب الوقاية من عذاب النـار بعد أن ينالوا المغفرة فتقديم المغفرة تقديم للسبب على المسبب « وقنـا عذاب النار » أى ادفـع عنـا عذابك ايانا بالنار ، وخصوا الوقاية من عذاب النار بالدعاء ، لأن من زحزح يومئذ عن النار فقد فاز بالنجاة من عذاب الله وحسن مآبه [1] .

السحر من افضل اوقات الاستغفار :

وبعد أن ذكر الله فى الآية السابقة بعض صفات عبـاده المتقين وهى دعاؤهم له بطلب الغفران والوقاية من عذاب النار بعد ايمانهم باللـه اتبـع ذلك ببيان صفاتهم الأخرى : وهى الصبر والصدق والقنـوت والانفاق والاستغفار فى وقت السحر .

« الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسـحار »

« الصابرين » أى على طاعة الله تعالى ، وعن محارمـه ، وحذف المتعلق يشعر بالعموم فيشمل الصبر على البأساء والضراء وحين البأس « والمنفقين » : أى الذين يضعون أموالهم فى وجوهها المشروعة ، وقيل فى الجهاد ، وقيـل : فى جميع أنواع البر .

« والصادقين » أى الذين صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم والسنتهم فى السر والعلانية .

« والقانتين » أى المطيعون ، أو المداومون على الطاعة والعبادة أو القائمون بالواجبات .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ١٣٨/٣ .

« والمستغفرين بالأسحار » جمع سحر بفتح الحاء وسكونهـــا ، وسميت أواخر الليل بذلك لما فيها من الخفاء كالسحر للشـــى الخفى وقيل : السحر من ثلث الليل الآخير الى طلوع الفجر ، ففى الصحيح انه تعالى ينزل الى سماء الدنيا فى ثلث الليل الآخير من كل ليلة فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فاعطيه من يستغفرنى فاغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر (١) .

وتخصيص الأسحار بالاســتغفار لأن الدعـــاء فيها يكون اقرب للاجابة ، حيث تكون العبادة فيها أشق لتلذذ الانسان بالنوم فيها ، ولأن الروح تكون اكثر صفاء بعد أن اخذ الجسم نصيبه من الراحة .

وهذه الأوصاف الخمسة لموصوف واحد وهـم المؤمنون ، وعطفت بالواو ولم تفصل عن بعضها بدون وصل لاستقلال كل منها عن الأخرى وتغايرها فليست فى معنى واحد ، فنزل تغاير الصـــفات منزلة تغاير الذوات فعطفت ، أو للدلالة على تحقق كل صفة منها فيهم على الوجه الأكمــل (٢) .

٢ - أتباع الرسول والفوز بحب الله :

ومن موجبات اجابة الله تعالى دعاء عباده الذين يطلبون مغفرة ذنوبهم : اتباع الرسول (ﷺ) والاقتداء به حيث يؤدى ذلك للفوز بحب الله وينتهى الى نيل مغفرة الله . وذلك ما نراه فى الآية الكريمة .

« قل أن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »(٢) سورة آل عمران : ٣١ .

---

(١) روح المعـانى ١٠٢/٣ .
(٢) البحر المحيط ٤٠٠/٢ .

قيل : انهـا نزلت فى قـــوم على عهده (ﷺ) كانوا يقولون : يامحمد إنا نحب ربنا فانزلها الله تعالى ، فجعل اتباع الرسول (ﷺ) دليلا على حبه وقيل ؟ انها نزلت فى نصارى نجران ، وذلك أنهـم قالوا : انما نعظم المسيح ونعبده حبا لله وتعظيما له فانزل الله هذه الآية ردا عليهم أى : قل يا محمد لنصارى نجران : ان كنتم تزعمون حب الله وتعظمون المسيح وتقولون فيه ما تقولون حبا لربكم فحققوا قولكم الذى تقولونه ان كنتم صادقين باتباعكم اياى ، فانكم تعلمون أنى رسول الله اليكم كما كان عيسى رسولا الى من أرسل اليه ، فانكم ان اتبعتمونى وصدقتمونى على ما أتيتكم به من عند الله يغفر لكم ذنوبكم ويصفح لكم عن العقوبة عليها ويعفو عما مضى منها فانه غفور لذنوب عباده المؤمنين رحيم بهم وبغيرهم من خلقه ، وذلك هو الأرجح . (١)

فمكافأة الله لعبده الراجى مغفرته مرتبط هنا ومقيد باتباع الرسول ﷺ الذى يؤدى اتباعه الى نيل حب الله ورجاء المغفرة .

٣ ـ المغفرة من ثمار التقوى :

من ثمرات التقوى والخوف من الله تعالى نيل مغفرته « **يأيها الذين امنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ....** »

سورة الانفـال : ٢٩

التحليل اللغوى والبيانى

« يأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله ... » أى اذا اتقى العبد ربـه باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وترك الشبهات خوفا من الوقوع فى الحرام ، وشحن قلبه بالنية الخالصة ، وجوارحه بالأعمال الصالحة ،

---

(١) الطبرىء جامع البيان ١٥٥/٣ ، ١٥٦ .

وتحفظ من شوائب الشرك الخفى والظاهر بمراعاة غير الله فى الاعمال جعل الله له بين الحق والباطل فرقانا(١) ٠

وقيل : يراد بالفرقان : نصرا يفرق بين المحق والمبطل باعزاز المؤمنين واذلال الكافرين ٠ وقيل : يراد به النجاة فى الدارين ٠ وقيل وهو ما أميل اليه يراد به : هداية ونورا فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل ٠

« ويكفر عنكم سيئاتكم » أى يسترها فى الدنيا « ويغفر لكـم » بالتجاوز عنها فى الآخرة ، فلا تكرار بينهما ٠

وقيل : مفعول يغفر محذوف تقديره : الذنوب ويراد به الكبائر ويراد بالسيئات : الصغائر ٠ وقيل : المراد ما تقدم وما تأخر لأن الآية فى أهل بدر وقد غفر لهم ففى الخبر : لعل الله تعالى أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ٠

« والله ذو الفضل العظيم » تعليل لما قبله وتنبيه على أن ما وعد به سبحانه عباده المتقين من الفرقان وتكفير السيئات ومغفرة الذنوب تفضل منه سبحانه وليس امرا ملزما به أو واجبا عليه ، ومن عظيـم فضله أنه يتفضل من غير واسطة وبدون التماس أو انتظـار مقابـل ولا كذلك غيره ٠

٤ ـ المغفرة من ثمرات الايمان بالله ورسوله والجهاد بالمال والنفس :

« يأيها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة ٠٠٠٠٠٠ وبشر المؤمنين »

(سورة الصف : ١٠ ـ ١٣)

قيل : نزلت هذه الآيات فى عثمان بن مظعون ، اذ قال لرسول الله (ﷺ) : لو أذنت لى فطلقت خولة ، وترهبت واختصيت وحرمت

---

(١) روح المعانى ١٩٦/٩ ٠

اللحـم ، ولا أنام بليل أبدا ، ولا أفطر بنهار أبدا ، فقال (ﷺ) ان من سنتى النكاح ، ولا رهبانية فى الاسلام ، انما رهبانية أمتى الجهاد فى سبيل الله ، وخصاء امتى الصوم ، ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ومن سنتى : أنام وأقوم ، وأفطر وأصوم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ، فقال عثمان : والله لوددت يا نبى الله أى التجارات أحب الى الله فاتجر فيها ، فنزلت ‎.‏ (١)

التحليل اللغـوى والبلاغى :

« يأيها الذين أمنوا ... تؤمنون بالله .... وأنفسكم »

المضارع فى قوله : « تؤمنون وتجـاهدوا بمعنى الأمر أى آمنوا وجاهدوا فهو خبر فى اللفظ انشاء فى المعنى ، ومجىء الأمر فى صورة الخبر للايذان بوجوب الامتثال ، وكأن الايمان والجهاد قد وقعا فأخبر بوقوعهما كقول الداعى : غفر الله لك ويغفر الله لك ، فتجعل المغفرة لقوة الرجاء كأنهـــا وجدت(٢) ويراد بدعــوة المؤمنين الى الايمـــان : « تؤمنون » المداومة عليه والثبات ‎.‏

« ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » أى ماذكر من الايمـــان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس خير لكم ان كنتم من أهل العلم ، « يغفر لكم ذنوبكم ..... الآية » جواب للأمر الذى جاء فى صورة الخبر « تؤمنون وتجـاهدون » أو لشـــرط دل عليه الكلام والتقدير : ان تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم ‎.‏

« وأخرى تحبونها نصر من الله ..... » الآية ‎.‏

أى ولكم مع هذه النعمة المذكورة من المغفرة والثواب فى الآخرة نعمة أخرى عاجلة فى دار الدنيا محبوبة اليكم وهى النصر العاجل بفتح مكة ، أو فارس والروم ‎.‏

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٨٧

(٢) الكشاف ٤/١٠٠ ‎.‏

« وبشر المؤمنين » قيل : معطوف على « تؤمنون » لانه فى معنى الامر كانه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبكم الله تعالى وينصركم ، وبشـــر يا رسول الله المؤمنين بذلك[١] ٠

٥ ـ من اسباب الفوز بمغفرة الله الانفاق فى سبيل الله من مـال طيب ابتغاء وجهه :

« فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا وانفقوا خيرا لانفسكم ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون ٠ أن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ٠ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم »

(سورة التغابن : ١٤ ـ ١٨)

التحليل اللغوى والبلاغى :

« فاتقوا الله ما استطعتم » أى ابذلوا فى تقواه عـز وجل جهدكم وطاقتكم ، أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » [٢] اشتد على القوم العمل فأخذوا يقومون الليل حتى ورمت أقدامهم وتقرحتجباههم فأنزل الله تخفيفا على المسلمين « فاتقوا الله حق تقاته » فنسخت الآية الأولى ٠ [٣]

« واسمعوا » مواعظه تعالى « وأطيعوا » أوامره ونواهيــه ٠ « وأنفقوا » ممـا رزقكم خالصا لوجهه فى الوجـــوه التى أمركـم بالانفـاق فيها ٠ « خيرا لانفسكم » أى ان فى تقوى الله وطاعتـــه والانفاق خيرا لنـا ومن أجل مصلحتنا وليس لمصلحة أحد ، وفى ذلك تأكيـد للحث على امتثـال هذه الأوامـر ٠

---

(١) روح المعانى ٢٨/٩٠
(٢) سورة آل عمران : ١٠٢
(٣) روح المعانى ٢٨/١٢٧

« **ومن يوق شح نفسه** » أى من يوفقه الله للانتصار على ما فى نفسه من شح وانقباض للانفاق فى وجـوه الخير ٠

« **فاولئك هم المفلحون** » أى الذين يفوزون بكل خـير ٠ « ان تقرضوا الله قرضا حسنا » « أى تنفقوا من أموالكم الطيبة فى سـبيل الله وابتغاء ثوابه ، وفى التعبير ترغيب شديد فى البذل والانفاق ببيان أن الانسان يعطى ما يعطيه فى الحقيقة لله على يد الفقير والمحتـاج والأحاديث فى ذلك كثيرة ٠

« يضاعفه لكم » أى يجعل لكم بالواحد عشرا الى سبعمائة الى أضعاف كثيرة ٠

« ويغفر لكم » ببركة الانفـاق الطيب مـا وقـع منكم من بعض الذنوب ٠ « والله شكور » أى يعطى الكثير على القليل ٠ « حلـيم » أى لا يعاجل بالعقوبة مع كثرة الذنوب ٠

« عالم الغيب والشهادة » أى ما ظهر وما بطن لا يخفى عليه شىء « وهو العزيز الحكيم » أى القوى الغالـب الذى يضـع كل شـىء موضعه ، واختلف فى المراد بالانفاق ، فقيل : الزكـاة المفروضـة ، وقيل : الانفاق المندوب ، وقيل : وهو الأرجح ما يعم الكل (١) ٠

٦ ـ من اسـباب المغفرة خشـية الله بالغيب :

« **ان الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجـر كبير** » ٠
الملك : ١٢

« ان الذين يخشون ربهم بالغيب » أى يخافون عذابه غائبا عنهم أو غائبين عنه أو عن أعين الناس غير مرائين ، أو بما خفى منهـم وهو قلوبهـم ٠

---

(١) المرجع السابق ٠

« لهم مغفرة » عظيمة لذنوبهم .

« وأجر كبير » لا يدرك قدره ، وتقديم المغفرة على الأجر من تقديم التخلية على التحلية (١) .

٧ — من أسباب نيل المغفرة واطالة العمر : عبادة الله وطاعة رسله :

«قال يا قوم انى لكم نذير مبين ● أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ان أجل الله اذا جـاء لا يؤخـر لو كنتم تعلمون » .

سورة نـوح : ٢ — ٤ .

نعرف أن أنبيـاء الله جميعهم جاءوا لدعوة الناس الى توحيد الله وطاعته وهدايتهم الى صراط الله المستقيم ، وأنـه لا اختلاف بين الأديان الا فى بعض التشريعات والأحكام التى اختلفت من ديانة لأخرى بمـا يتناسـب مع أهل تلك الديانة ، امـا معظم ما جاء به الرسل من آداب وأخلاق فأنه متفق عليه ويعمل بـه فى كل الديـانات ، ولذلك يذكر لنـا القـرآن كثيرا من آداب وأخلاق الرسل السابقين لنهتـدى بها ونسير على نهجها ، من ذلك ما ذكره على لسان سيدنا نـوح عليـه السلام فى دعوته قومـه الى الخوف من الله والرجوع اليـه أمـلا فى نيل مغفرته والنجاة من الموت هلاكا واستئصالا . .

التحليـل اللغـوى والبيـانى :

« قال يا قوم انى لكم نذير مبين » أى منذر موضـح لحقيقـة الأمر ، واللام فى « لكم » للتقوية أو للتعليل ، أى لأجـل نفعكم من غير أن أسـألكم أجـرا .

---

(١) روح المعانى ٢٩/١٣ .

« أن اعبدوا الله واتقــوه وأطيعــون » أى اقصــدوا الله وحـده بعبادتكم فلا تشركوا به « شــيئا » ، وخافــوه ، واطيعون فيمــا أدعوكم اليه فانى رسول الله اليكم ٠

« يغفر لكم من ذنوبكم » من « للتبعيض ، أى يغفــر لكم بعض ذنوبكم قبل الايمان وهى التى تتعلق بحقوق الله تعالــى فقط وقيــل : وهو ما نرجحه : يشمل الغفران كل الذنوب التى وقعت قبل الايمان المتعلق منهــا بحــق الله والمتعلــق منها بحـق العبـاد لمـا ورد أن الايمان يجب مـــا قبله ٠

« ويؤخركم الى أجل مسمى » أى يزيد فى أعماركم ويبارك فيها ولا يعاجلكم بالموت غرقا أو حرقا أو قتــلا ، ولا تعــارض بين هذه العبارة والعبارة التالية : « ان أجل الله إذا جاء لايؤخر » التى تعنى أن الله تعالى قضى مثلا على قوم نوح بمد أعمارهم إن آمنوا الى ألف سنة وباهلاكهم على رأس تسعمائة سنة ان استمروا فى كفرهم فقيل لهم : آمنوا بالله يؤخركم الى الأجل المعلوم الذى حـــدده وهو تمام الالف ، والذى اذا جاء لا يؤخر ٠

« لو كنتم تعلمون » تفيد تلك العبارة الزجر عن حب الدنيــا والتهالك عليها تهالكا يؤدى بأصحابه الى نسيان الموت والشك فيه (١) ٠

---

(١) البحر المحيط ٨٣٨/٨ والتفســير الكبير ١٣٥/٣٠ وروح المعانى ٦٩/٢٩ ٠

الفصل الثاني

المغفـرة من صـفات النـاس

المغفـــرة من صـفات النـاس

وصف الله عبـاده المؤمنين فى عدة مواطن بالمغفرة مع وضـوح البون البعيد بين مغفرته تعالى ومغفرة عبـاده ، وهذه المواطن هى :

١ ـ مغفرة المتصدقين لأصحاب الحاجات وطالبى العون والمساعدة بمعنى اخفاء أحوالهم وسترها وعدم التحدث بها أمام أحد فى قـوله تعـالى : —

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سـبيل الله كمثل حبـة انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمـن يشاء والله واسـع عليم • الذين ينفقون أموالهم فى سـبيل الله ثـم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عنـد ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • قول معروف ومغفرة خـير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم • يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمـن والأذى كالذى ينفـق ما لـه رئآء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثـله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهـدى القوم الكافرين• ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنـة بربوة اصابها وابـل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير • أيـود احدكم أن تكون لـه جنـة من نخيل واعناب تجرى من تحتها الأنهار لـه فيهـا من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون • يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيـه

واعلموا ان الله غنى حميد • الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منـــه وفضلا والله واسع عليم » •

سورة البقرة : ٢٦١ — ٢٦٨

٢ — بمعنى الحلم والصفح عند الغضب والعفو عن المسىء وذلك فى قوله تعالى من ســـورة الشورى : —

« فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خـــــير وأبقـــى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون • والذين يجتنبون كبائر الاثـــم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون • والذين اســتجابوا لربهم واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون • والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون • وجزاء سيئة سيئة مثلهـــا فمن عفا وأصلح فأجره على الله أنه لا يحب الظالمين • ولمن انتصر بعد ظلمة فأولئك ما عليهم من سبيل • انما الســـبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور • « الشورى : ٣٦ — ٤٣

٣ — بمعنى الحلم والصفح أيضا مع الجاهلين من المشركين وغيرهم وذلك فى قوله تعالى من سورة الجاثية : —

« قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قومـــا بما كانوا يكسبون » • الجاثيـــة : ١٤

٤ — بمعنى العفو والصفح عن اساءات الأولاد والأزواج فى قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم •

« انمـــا أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم »

(سورة التغابن : ١٤ ، ١٥)

المغفـــرة من صفات الانسان بمعنى الســـتر

مثـل الذين ينفقون أموالهم ٠٠٠٠٠٠ تتفكرون » ٠

سورة البقرة : ٢٦١

المعنـــــــــى :

يحبب الله المؤمنين فى انفاق الاموال فى وجوه الــبر ويرغبهم فى المشاركة بها فيما يجلب النفع والخير للمسلمين حيث يكافئهم على الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف الى ما شاء الله اذ أن خزائنــه لا تنفد ، على أن يكون المقصد الأصلى لانفاقهم ابتغاء وجــه الله فلا يريدون بهــا شهرة ولا رياء ، ولا يتبعونها بمن ولا اذى حتى يستحقوا الأجـــر كاملا من الله ويتحقق لهم الأمن والاطمئنان ، وعلى المنفق أن ينتفع : بمــا ينفقه فى الفوز بثواب الله الذى أعــده للمنفقين وذلك بتحرى الاخلاص والحذر من كل ما يضيع ثواب صدقته كالمن والأذى والرياء ٠

سبب النزول : – روى أن هذه الآية نزلت فى شـــأن عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابـــن عوف رضى الله عنهما ، وذلك أن رسول الله (ﷺ) لمــــا حث الناس على الصدقة حين أراد الخروج الى غزوة تبــوك جاءه عبد الرحمن بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله ، كانت لى ثمانية آلاف فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف وأربعة آلاف أقرضتها لربى فقــال (ﷺ) : –

« بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ٠

وقـــال عثمان : يا رسول الله على جهاز من لا جهاز لــــه فنزلت هذه الآية فيهما (١) ٠

---

(١) القرطبى : الجامع لاحكام القرآن – ط ثالثة ٣٠٣/٣ ٠

واخرج مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال : لمـــا نزلت هـــذه الآية — قال (ﷺ) : « رب زد أمتـــى » فنزلت : « من ذا الـــذى يقرض الله قرضا حسنا ... كثيرة » قال : (ﷺ) « رب زد أمتـــى فنزلت : « انما يوفى الصابرون .. بغير حساب » ، وتوضح لنـــا الآية الكريمة شرف الانفـــاق فى سبيل الله ، كما تحضنا على الانفاق وترغبنا فيه ، والتشبيه فى الآية الكريمة تشبيه تمثيلى يزيد ذلك المعنى توضيحا ، فقد شبـــه المنفق من مال طيب حيث تجب النفقة فيكون ثواب الله لـــه جزيلا بالزارع الماهر الذى يعد الارض إعدادا جيدا ويضع فيهـــا أجـــود البذور فتوءتى أعظم الثمر وأجـــود النبات .

التحليل اللغوى والبيانى :

« كمثل حبة أنبتت سبع سنابل » الحبة : اسم جنس لكل ما يزرعـــه ابـــن آدم ويقتاته ــ والسنبلة » من : أسبل الزرع اذا صـــار فيه السنبل ، أى استرسل وتدلى بالسنبل كما يستر بالاستار وقيل : معناه صـــار فيه حب مستور كما يستر الشىء باسبال الستر عليه والجمع سنابل » (١).

« **والله يضاعف لمن يشاء ..** » تفيد تلك العبارة أن ثواب النفقة فى وجوه البر ولاسيما فى الجهاد كما فى هذه الآية يزيد على سبعمائة ضعف ، وقد ذكر القرآن فى مكان آخر أن الحسنة بعشر أمثالها « من جاء بالحسنة فله عشر امثالهـــا ... » .

فقال بعض العلماء : أن هذه العبارة « والله يضاعف ..... » مؤكـــدة لمـــا تقدم عليها من السبعمائة ولا تعنى الزيادة على السبعمائة وقال بعض آخـــر وهو ما نرجحه ، بأنها تفيد الزيادة على سبعمائـــة ضعف ، يؤكـــد ذلك الحديث الذى ذكرناه برواية (ابـــن عمر) ومـــا

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ٣٠٤ .

ورد فى غير ذلك من كلامه (ﷺ) : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها أو أزيد » ، وتلك الزيادة غير محددة ، كما أنه روى عن ابن عباس أن التضعيف ينتهى لمن شاء الله الى الفى ألف[1] ٠

وفى الآية الكريمة دليل على أن الاشتغال بالزراعة من خير الحرف حيث ضرب الله بهـا المثل ، وقد روى مسلم عنه (ﷺ) :

« ما من مسلم يغرس غرسا او يزرع زرعا فياكل منه انسان أو طير أو بهيمة الا كان له به صدقة » [2] ٠

البعد عن المن والأذى :

« الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا أذى ٠٠٠٠ ولا هم يحزنون « الآية : ٢٦٢ ٠

أوضحت الآية السابقة ثواب الانفاق فى سبيل الله على وجه العموم وجاءت تلك الآية لتحدد أن ذلك الثواب مقيد بامور لابد من مراعاتها

وفى مقدمتها : قصد وجه الله بها وعدم المن والأذى بها ، وقد روى أن اعرابيا اتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال :

يا عمر الخير جزيت الجنة ❊ اكس بنياتى وأمهنه
وكن لنا من الزمان جنة ❊ اقسم بالله لتفعلنه

فقال عمر : ان لم افعل يكون ماذا ؟ قال الاعرابى :
اذا ابا حفص لأذهبنه

---

(١) المرجع السابق : ٣٠٥ ٠
(٢) المرجع السابق : ٣٠٥ ٠

فقال عمـــر : اذا ذهبت يكون ماذا ؟ قـــال :

تكون عن حـــالى لتسالنه * يوم تكون الأعطيات هنــة
وموقف المسئول بينهنـــــه * أما الى نار واما جنـــــة

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : ياغلام ، اعطه قميصى هذا لذلك اليوم لا لشعره ، والله لا أملك غـــيره (١) .

ســـــبب نزولهـــا :

قيل أنها نزلت فى عثمان بن عفان ، قال عبد الرحمن بن سمره جاء عثمان بالف دينار فى جيش العسرة وصبها فى حجر رسول الله ﷺ فرأيته يدخل يده فيها ويقبلها ويقول : « وماضـــر ابن عفان ماعمل بعد اليوم ، اللهم لاتنس هذا اليوم لعثمان » وقال أبو سعيد الخدرى : رأيت النبى ﷺ رافعا يديه يدعو لعثمان يقول : « يارب عثمان انى رضيت عن عثمان فارض عنه ، فمازال يدعو حتى طلع الفجر : « فنزلت : « الذين ينفقون أموالهم .... ولا أذى » الآية(٢) .

« فى سبيل الله » أى فى دينه ، قيل : يراد به النفقة فى الجهاد خاصة ، وقيل : وهو مانرجحه : جميع أعمال البر وكل وجوه الخير التى تحقق النفع وتعود بالمصلحة على المسلمين ، كبناء المساجد ودور العلـم والمستشفيات ومساعدة المرضى والمحتاجين وطلاب العلـــم وغير ذلك من وجوه البر .

« ثم لايتبعون ما انفقوا منا ولا أذى » المن : تذكير المحسن اليه بما أخذ وترداد ذلك ، والتحدث به أمام الناس حتى يبلغ - المعطى فيؤذيه .

والمن من كبائر الذنوب كما ورد فى صحيح مسلم وغيره من أن فى الثلاثة الذين لاينظر الله اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب اليـــم

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ٣٠٧
(٢) السابق : ٣٠٦ .

« المنان بما أعطى » ، وقال بعضهم : لئن ظننت أن سلامك يثقل على من انفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه(١) .

وأصل المن : القطع ، لأن المنعم يقطع قطعة من مالـــه لمن ينعـــم عليه(٢) .

والاذى : كثرة شكواه منهم بسبب ما اعطاهم ، وقد عد المن من كبار الذنوب لأمور منها : أن الفقير الآخذ للصدقة من شأنه أن يكون منكســر القلب بسبب حاجته ، فاذا أضاف الى ذلك اظهار التفضل عليه زاد ذلك انكسار قلبه ، فيكون كمن أساء اليه بعد الاحسان ، وأن اظهار المن يبعد عنه أصحاب الحاجات وينفرهم من الاقتراب منه ، ومنها : أن المنفق يجب أن يكون معتقدا بأنه انما يعطى لله ومن مال الله والذى يمن بعطيته لايعتقد ذلك(٣) .

وقدم المن على الأذى لكثرة وقوع المن ، وتوسيط كلمة « لا » بين المن والأذى ليشمل النفى كل ما يتعلل بهما ولو كان أدنى شىء منهمـا ، والتعبير « بثم » وهى للتراخى لافادة التفـــاوت فى الرتبة بين الانفاق الخالص فى سبيل الله وبين الانفاق المتبوع بالمن والأذى(٤) .

« لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » .

هذه جملة من مبتدأ وخبر وقعت خبرا عن الموصول « الذين » وفى تكرير الاسناد « لهم ، ولاهم ، وتقييد الأجر بقوله :

لهم ، عند ربهم من التاكيد والتشريف مالا يخفى .

وكان مقتضى الظاهر أن يدخل الغاء فى حيز الموصول فيقال : فلهم لتضمنه معنى الشرط مثل : الذى يأتينى فله درهم ، وقد عدل عن ذلك

(١) الجامع لاحكام القرآن : ٣٠٨ .
(٢) أبو حيان : البحر المحيط ٣٠٢/٢ .
(٣) التفسير الكبير للفخر الرازى ط ثالثة ٤٦/٧ .
(٤) روح المعانى : الآولوسى ٣٣/٣ دار الشراق .

ايهاما بأن هؤلاء المنفقين يستحقون الأجـــر والثواب من الله لذواتهـــم وما استقر فى نفوسهم من حب الخير لا لوصف الانفاق فقط ويجوز ان يكون عدم دخول الفاء على الخبر وهى تفيد سببية ماقبلها لما بعدها للايذان بأن ترتيب الأجر على ماذكر من الانفاق وترك - اتباع المن والأذى أمر بين لا يحتاج الى التصريح بالسببية (١) ٠

والكلمة الطيبـة صـدقة : صدق رسول الله ٠

« قول معروف ومغفرة ٠٠٠ والله غنى حليم » الآية ٢٦٣ ٠٠ لما ذكر الله تعالى فى الآية السابقة ان المنفقين الذين ينالون الثواب العظيم والأجر الكبير من الله هم الذين تكون صدقتهم خالصة لوجه الله غير متبوعة بمن ولا أذى ، أردف تلك الآية لبيان أن رد السائل ردا حسنا وعدم التشهير به أفضل من اعطائه صدقة توقعه فى الحرج وتسىء اليه وتجـرح مشاعره ٠

« قول معروف » مبتدأ والخبر محذوف ، أى أولى وأفضل ، أو خبر لمبتدأ محذوف أى الذى أمرتم به قول معروف ٠

والقول المعروف يتمثل فى طمانة السـائل والترحيب به باظهار البشر والسرور ووعده بالاعطاء فى القريب ان شاء الله مصداقا لقوله (ﷺ : والكلمة الطيبة صدقة - ولقوله (ﷺ : وان من المعروف ان تلقى أخاك بوجه طلق - وقوله ﷺ من حديث عمر : « اذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتى يفرغ منها ثم ردوا عليه بوقار ولين أو ببذل يسير فقد يأتيكم من ليس بانس ولاجـــان ينظرون صنيعكم فيما خولكم الله تعالى « يشير بذلك الى مجىء ملك فى صورة أقرع مـرة

(١) المرجـع السابق نفسـه ٠

واعمى أخرى وأبرص ثالثة امتحانا للمسؤول ٠ فى الحديث الذى رواه مسلم(١) ٠

« ومغفرة » فى المغفرة وجوه : احداها : أن يقصد بها عفو المنفق عن اساءة الفقير اليه بالشتم أو غيره اذا لم يحسن اليه ثانيها : أن نيل المغفرة من الله بسبب الرد الجميل أفضل من ـ صدقة يتبعها اذى ٠

ثالثا : انها دعوة للمنفق الى ستر حاجة الفقير وعـــدم التحدث بذلك أو أعلانه أمام أحد من الناس ، وذلك ما ارجحه ، ومن ذلك أن اعرابيا سأل قوما بكلام فصيح فقال له قائل : ممن الرجل ؟ فقال : اللهم غفرا ، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب(٢) ٠

« خير من صدقة يتبعها أذى » أى أفضل عند الله من صدقة هــى فى ظاهرها صدقة وفى باطنها لاشىء لأن ذكر القول المعروف فيه أجر وهذه لا أجر فيها ٠

« والله غنى حليم » أى غنى عن صدقات العباد وانما أمرهم بها لمصلحة تعود عليهم ، أو عن الصدقة بالمن والأذى فلا يقبلها أو غنى لايحوج الفقراء الى تحمل عبء المن والأذى من الأغنياء ويرزقهم من جهة أخرى « حليم » فلا يعجل بالعقوبة على المـــن ٠٠ والايذاء ، والجملة تذييل لما قبلها مشتملة على الوعد والوعيد مقررة لاعتبار الخير بالنسبة للسائل قطعا (٣) ٠

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣٠٩ ٠
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٣١٠ والتفسير الكبير ٤٦/٧ ٠
(٣) روح المعـانى ٣٤ ٠

خيبـة المسـعى :

يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم ٠٠ الكافرين » الآية(٢) : ٢٦٤
بعد ان وضح سبحانه فى الآية السابقة أن رد السائل ردا حسنا وعدم اظهار أمره للناس بالستر عليه أفضل من صدقة يتبعها أذى زاد فى تلك الآية الامر توضيحا بتقرير ان المن والأذى يضـيع ثواب الصـدقات ويفسدها ، وكل من المان بصدقته والمرائى والكافر يظن ويحسب خطأ أنه عمل اعمالا صالحة بما تصدق وأنفق لكنه يفاجأ يوم القيامة أنه لم يعمل شيئا كالحجر الذى يقع عليه تراب يحسبه الرائى أرضا يصلح لانبات الزرع ثم يفاجأ بأن مطرا غزيرا ينزل عليه فيجعله صلدا لايصلح لزرع ولا انبات وكذلك الذين يمنون بصدقاتهم ويراؤون بها والكافرون لايعود عليهم أى نفع من أعمال يظنون فيها النفع لهم ٠

فعلاقة الآية بما قبلها كعلاقة السبب بالمسبب ٠

« والله لايهدى القوم الكافرين » الجملة تذييل مقرر لمضـمون ماقبله ، وفى ذلك تعريض بأن كلا من الرياء والمن والأذى على الانفاق من صفات الكفار ولابد للمؤمنين أن يجتنبوها ٠

ماكان لله دام واتصل :

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ٠٠٠ بما تعملون بصير » الآية ٢٦٥
بعد أن وضح الله فى الآية السابقة مايحدثه المن والريـاء فى اخراج الصدقات من ازالة لثوابها وتضييع لفوائدها حيث تظن الفائدة وضح فى هذه الآية الصدقات التى تكون على عكس ذلك حيث بضدها تتميز

---

(٣) الصفوان : الحجر الكبير الأملس ، صلدا : أى يابسا لاتراب عليه لايقدرون ٠٠ « أى على الانتفاع بثواب شىء من أنفاقهـم وهو كسبهم عند حاجتهم اليه اذا كان لغير الله ، وعبر عن النفقة بالكسب لأنهم قصدوا بها الكسب ٠

الأشياء وهى التى يضعها أصحابها حيث ينبغى أن توضع باخلاص لله وطمع فى ثوابه وبكامل الرضا حيث ينالون الثواب الجزيل من الله على قدر ما انفقوا قلة وكثرة ، وذلك كالجنة التى تقع فى موضع طيب لاستقبال الماء والهواء والشمس وتجود باللذيذ والغزير من الثمر عندما تسقى بماء كثير ، فان لم تسق بالماء فانها تؤتى قدرا من الثمار ولاتحرم من تقديم الخير .

« ابتغاء » مفعول لأجله أى طلب « ومرضاة » مصدر من رضى يرضى ، « وتثبيتا » عطف عليه ، أى يتثبتون اين يضعون صدقاتهم وكان الرجل اذا هم بصدقة تثبت ، فان كان عمله لله امضاه ، وان خالطه شـك أمسـك .

« من انفسهم » « من » تبعيضية كما فى قولهم : هز من عطيته وحرك من نشاطه ، فان للنفس قوى ، بعضها مبدأ بذل المال ، وبعضها مبدأ بذل الروح ، فمن سخر قوة بذل المال لوجـه الله فقد ثبت بعض نفسه ، ومن سخر قوة بذل المال وقوة بذل الروح فقد ثبت كل نفسه .

«كمثل جنة بربوة » الجنة : البستان ، وهى قطعة أرض تنبت فيها الأشجار حتى تغطيهـا ، فهى مأخوذة من لفظ الجن والجنين لاستتارهم ، والربوة(١) : المكان المرتفع ارتفاعا يسيرا معه فى الأغلب تراب كثيف ، وما كان كذلك فنيباته أحسـن ، ولذلك خص الربـوة بالذكر ، وقال ابن عباس : الربوة : المكان المرتفع الذى لا تجرى فيـه الأنهار ، لأن قوله : « اصابها وابل » الى آخر الآية يدل على أنه ليس فيها ماء جار ، والمعروف من كـلام العرب ان الربوة مـا ارتفع عمـا جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر .

---

(١) بفتح الراء وضمها وكسرها .

أصابها وابل : أى نزل عليها مطر شديد ٠

« فآتت أكلها » أى أعطت ثمارها ، والأكل : الشىء الذى يؤكل ، والمأكول من كل شىء يقال له أكل ٠

« ضعفين » أى أعطت ضعفى ثمر غيرها من الأرض ، وقيل : حملت مرتين فى السنة والأول أكثر ، أى أخرجت من الزرع فى سنة واحدة مايخرج غيرها فى سنتين ٠

« فان لميصبها وابل فطل » الطل : المطر الضـعيف ، وقيل : الندى يؤكد سبحانه مدح هذه الربوة بأنها ان لم يصبها وابل وينـزل عليها مطر شديد ، فان الطل أى المطر الخفيف أو الندى يكفيها وينوب مناب المطر الشديد فى مضاعفة الثمر ، وذلك لجودة الأرض - وحسن موقعها ، وانتفاعها بالشمس والهواء وكذلك تكون الصدقة التى يقدمها المؤمن لا يبتغى بها الا وجه الله عظيمة الأجر كثيرة الثواب كبيرة النفع قليلة كانت أو كثيرة ٠

« والله بما تعلمون بصـــير » وعد للمنفقين المخلصـــين ووعيد للمرائين والمنانين ٠

نهـــاية مفزعـــة :

« ايود أحدكم ٠٠٠٠ لعلكم تتفكرون » الآية : ٢٦٦ ٠

بعد أن وضح سبحانه فيما سبق أن المن والأذى والرياء يذهـب ثواب الصدقة ويضيع أجرها حيث ينتظر الثواب ويظن الأجر ، زاد الأمر توضيحا وتصويرا للتنفير الكامل من المن والأذى والرياء والتحذير منها ، وذلك بتصوير مايفعله المراؤون من أعمال حسنة يعتقدون أنها تكسبهم ثواب الله وتجنبهم عذابه ثم خيبة آمالهم فى حرمانهم من كل مايتوقعونه فى وقت تشتد فيه حاجتهم الى ذلك وهو وقت وقوفهم بين

يدى الله ونهاية أمرهم بالحسرة الشديدة والحزن الطويل لدخولهم جهنم وبئس المهاد ، يصور الله ذلك بحالة لايحب أن يراها فرد من الناس فضلا عن أن يذوق مرارتها ، وهو أن يكون للانسان بستان أعظم مايكون حيث تجرى فيه الأنهار ، ويمتلىء بجميع أصناف الثمار فتشتعل فيه النيران فى وقت هو فيه فى أمس الحاجة اليه لكبر سنة وضعفه عن الانفاق ، وضعف ابنائه عن الكسب لصغر سنهم وقلة حولهم ، وبالتاكيد لايطيق أحد رؤية ذلك بل سماعه وهكذا يصل بنا البيان القرآنى الغاية فى التخويف من الرباء والتحذير منه .

« أيود أحدكم » الهمزة للاستفهام الانكارى ، والود هو المحبة التامة وايثار التعبير بها بدلا من : « يريد » تنبيها على الانكار التام والتنفير البالغ الى درجة لا مزيد عليها وأن احدا من الناس لا يحب ذلك .

« ان تكون له جنة من نخيل واعناب » وخص النخيل والأعناب بالذكر لأنهما أشرف الفواكه ، وأحسنها منظرا عند وجودها على أشجارها . » « فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت « الإعصار : الريح الشديدة التى تهب من الأرض الى السماء كالعمود ، وقيل للريح أعصار ، لأنه يعصر السحاب ، والسحاب معصرات ، أما لأنها حوامل فهى كالمعصر من النساء (التى هى عرضة للحمى من النساء) واما لأنها تنعصر بالرياح .

« كذلك يبين الله ... تتفكرون » أى لكى تتأملوا فى عظمتى وربوبيتى ولاتتخذوا من دونى أولياء ، وقال ابن عباس : لكى تتفكروا فى زوال الدنيا وفنائها واقبال الآخرة وبقائها .

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : هذا مثل ضربة الله للمرائين بالأعمال ينتظرونها يوم القيامة أحوج ما يكونون اليها ، كمثل رجل كانت

له جنه ، وله أطفال لايقدرون على الكسب ، فكبر الرجل وأصاب جنته ريح عاصف فيه نار فاحترت ففقدها أحوج مايكون اليها ·

وروى ابن أبى مليكة أن عمر تلا هذه الآية وقال : هذا مثل ضرب للانسان يعمل عملا صالحا حتى اذا كان عند آخر عمره أحوج مايكون اليه عمل عمل السوء ·

وكذلك نرى فى تلك الآيـــات الكريمة عدا ورود لفظ « مغفرة » بمعنى الستر والاخفاء مـ نالناس ، عظمة التصوير القرآنى وتدرجه فى التنفير من الرياء ، حيث سلك فى ذلك مراحل مرت بنا ورأيناهـــا متمثلة فى :

١ ـ الترغيب فى الاتفاق « مثل الذين ينفقون ·

٢ ـ بيان فضل الصدقة وعظيم أجرها اذا لم تتبع بمن ولا أذى « الذين ينفقون ···· »

٣ ـ توضيح أن القول المعروف خير من الصدقة التى تتبع بمن

٤ ـ تصوير خطر الرياء فى تضييع قيمة الاعمال « يا أيها الذين امنوا لا تبطلوا ·· » وتصوير قيمة الاخلاص فى تحقيق الخير والنفع (ومثل الذين ··· « ثم التنفير الذى بلغ اقصى الدرجات » أيود ـ احدكم » ·

المغفرة بمعنى « الستر » للذنوب من الله تعالى

« يأيها الذين آمنوا أنفقوا ٠٠٠٠ والله واسع عليم » ٠
(سورة البقرة : ٢٦٧ ، ٢٦٨)

تحدثت الآيات السبقة عن ضرورة توافر الاخلاص وابتغاء وجـه الله فى تقديم الصدقات وعدم اتباعها بالمن والأذى ، ويدعونا الله فى هاتين الآيتين الى أن يكون ماننفقه من أجود أموالنا ، حيث أنا نقدم مانقدم لله فلا نرضى لله الا مانرضى لأنفسنا ٠

ســبب النزول :

لما أمر الله باخراج الصـــدقات كانوا يأتون بالاقنـــاء من الثمر فيعلقونها فى المسجد لياكل منها المحاويج فجاء بعض الصحابة بحشف أو بشيص أو بتمر ردىء وهو يرى أن ذلك جائز فنزلت ، والأمر بالانفاق عام لجميع الأمة ٠

التحليل اللغوى والبيانى :

«من طيبات ماكسبتم ٠٠٠ » أى من أجود مايقع تحت أيديكم من مال حلال سواء أكان نقدا ، أم زرعا ، أم عروضا أم غير ذلك ٠

« ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون » أى ولا تقصدوا أو تعمدوا الى المال الردىء والحرام وما فيه شبهة فتخرجوا الصدقة منه ٠

« ولستم بآخذيه الا أن تغمضـــوا فيه : » الاغماض : التغاضى والتساهل ، أى لاتنفقوا من شىء ردىء لاتحبون أن تأخذوا مثله فى شراء أو هدية الا بكره ومشـــقة لما فيه من العيوب فلا تقدموا لله الا ماترضونه لأنفسكم ٠

« وأعلموا أن الله غنى حميد » أى غنى عن صدقاتكم وانما هى اعمالكم ترد عليكم ، محمود على كل حال ٠

« الشيطان يعدكم الفقر » أى يخوفكم بالفقر ان تصدقتم ، أو أن تصدقتم بالمال الطيب والجيد •

« ويأمركم بالفحشاء : » أى يغريكم بها اغراء الآمر ، والفحشاء البخل وترك الصدقة ، أو المعاصى مطلقا ، أو الزنا ، روى ابن مسعود عنه (ﷺ) : « ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لسمة[1] • فأما لسمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، واما لسـمة الملك فايعاد • بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فيلعم أنه من الله ، ومن وجد الآخرى فليتعود بالله من الشيطان ثم قرأ : « الشـيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ٠٠ » •

والوعد فى كلام العرب اذا أطلق فهو فى الخير واذا قيد بالموعود فقد قيد بالخير وبالشر ، وفى هذه الآية قيد بالمعنيين جميعا[2] •
وقدم وعد الشيطان على أمره ، لأنه بالوعد يتحقـق الاطمئنان اليـه فاذا اطمـأن اليه وخاف الفقر تسلط عليه بالأمر اذ الأمر استعلاء على المأمور[3] •

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » أى سترا لذنوبكم مكافاة على البذل والانفاق ، « وفضلا أى زيادة على مقتضى ثواب البـذل ، أو يخلف عليكم أفضل مما انفقتم ، أو ثوابا عليه فى الآخرة[4] •

« والله واسع عليم » أى واسع بالجود والرحمة والفضل عليم بما تنفقونه فيجازيكم عليه ، والجملة تذييل مقـرر لمضمون ما قبله •

فالمغفرة كما رأينا فى الآية الكريمة قصد بها سـتر الله ذنـوب

---

(١) الهمة والخطرة تقع فى القلب •
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٨/٣ •
(٣) أبو حيان : البحر المحيط : ٣١٩/٢ •
(٤) المرجع السابق ٣١٩/٢ •

عبـاده المتصدقين : وفى الآيات السابقة أريد بها على الرأى الراجح ستر المتصدقين احوال السائلين وعـدم التحدث بذلك لأحـد ٠

٢ ـ من صفات المؤمنين : المغفرة عند الغضب :

وصف الله عباده المؤمنين بأمور منها : المغفرة ولا سيما فى أشد الحالات التى تقتضيها وهى : حالة الغضب ، وذلك فى قوله تعالى :

« فما اوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ٠٠ لمن عزم الأمور » ٠
(الشورى : ٣٦ ـ ٤٣) ٠

التحليل اللغـوى والبيـانى :

« فما أوتيتم من شىء فمتاع ٠٠٠ » روى أنها نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه لمـا تصـدق بجميع ماله فى سبيل الله ولامـه المسلمون وخطـأه الكافرون (١) ٠

« فما أوتيتم من شىء » أى من الغنى والسـعة فى الدنيـا ٠ « فمتاع الحياة الدنيا » أى لا ينبغى أن يتفاخر به لأنه يزول وينقضى سريعا ، وفى تسميته بمتاع دلالة على قلته واحتقاره ، وفى اضافـة « المتاع » الى « الحياة الدنيا » دلالة ثانية على انقراضه وزواله ٠

« وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا ٠٠ » أى فيما اعده الله من ثواب على الطاعة لعباده المؤمنين افضل وأبقى من متاع الدنيـا الحقير والزائل وهؤلاء المؤمنون وصفهم الله بصفات هى :

الايمان بالله والتوكل عليه ـ واجتناب كبائر الاثـم والفواحش والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لله ، وأقـام الصلاة ، وعدم الاستبداد بالرأى والانفاق مما رزقهم الله ، واسترداد حقوقهم بدون زيادة عندما يترتب على العفو والتجاوز عنها ضرر وخطر ٠

---

(١) البحر المحيط ٥٢٢/٧ ٠

« والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش » قيل : يراد بكبائر الاثم ما يوجب الحد أو كل ما نهى الله عنه ــ وبالفواحش : ما فحش وعظم قبحه منها : (١) .

« واذا ما غضبوا هم يغفرون » أى يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم ، قيل : نزلت فى عمر رضى الله عنه حين شتم بمكة ، وقيل : فى أبى بكر حين لامه الناس على انفاق ماله كله ، وحين شتم فحلم ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : شتم رجل من المشركين ابا بكر فلم يرد عليه شيئا فنزلت الآية (٢) .

« والذين استجابوا لربهم .... ينفقون » ..

قيل : نزلت فى الانصار دعاهم الله عز وجل للايمان به وطاعته فاستجابوا له ، وأقاموا الصلوات الخمس فى أوقاتها ، وكانوا يتشاورون فى أمورهم ولا يستبدون برأى ، وفى الحديث الشريف :

« اذا كان امراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم اسخياءكم ، وامركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، واذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم الى نسائكم فبطن الارض خير لكم من ظهرها » ، وعن الحسن : ما تشاور قوم الا هدوا الى رشدهم » ، وكانوا ينفقون مما رزقهم الله(٣) .

« والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون » أى يقتصرون فى استرداد ما وقع بهم من ظلم فى انفسهم أو فى موالهم أو فى اعراضهم على مقدار حقهم بدون ما زيادة .

---

(١) روح المعانى ٤٥/٢٥ .
(٢) القرطبى : ٣٥/١٦ .
(٣) الكشاف ٤٧٢/٣ .

ولا تعارض بين ما ورد فى هذه الآية وبين الآية التى تتقدمهـــا والتى يمتدح الله فيها عفو المؤمنين ومغفرتهم عند الغضب وفى غــير ذلك من الآيات كقوله تعالى : « وأن تعفو أقرب للتقوى » (١) ٠٠

وقوله : « خذ العفو ٠٠ » (٢) وقوله : « وأن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم بــه ٠٠٠٠ (٣) حيث ان العفو والمغفرة لا يكونان محمودين فى كل الأحوال وفى جميع الأوقات ، اذ يحمــد العفو عندما يكون عن مقدرة وليس عن ضعف ويكون ســببا فى تهدئة الفتنة ، ويكون مع من يقدره ومن ليس متعمدا ولا مصرا على اساءة ، فأما عندما يكون العفو سببا فى اتساع الفتنة وتمادى المجرمين فى غيهم فانه يكون مذموما ويصبح الانتقــام آنذاك هو الأنسب والأفضل ٠

« وجزاؤ سيئة مثلها ٠٠٠٠ لا يحب الظالمين » ٠

بعد أن امتدح الله تعالى المؤمنين على الدفاع عن حقوقهم وعدم التهاون اذا ما ترتب على التهاون ضرر أكبر جاءت هذه الآية لتبين أن الانتقام واسترداد الحق يكون على قدره بدون زيــادة أو نقصان ، وتسمية الجزاء على السيئة سيئة اما لمشابهته لها فى الاساءة ، واما لتسببه فعبر عن الجزاء بلفظ السيئة على سبل المشاكلة ، وتحمل الآية الكريمة فى ضمنها حثا على العفو حيث يصعب التماثل والتساوى فى اســترداد الحقوق والانتصار لها ٠

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » أى يجزيه الله أعظم الجــزاء وفى ابهام الاجر وجعله حقا على الله زيادة فى الترغيب فى العفو ٠

---

(١) سورة البقرة : ٢٣٧ ٠
(٢) سورة الاعراف : ١٩٩ ٠
(٣) سورة النحل : ١٢٦ ٠

« انه لا يحب الظالمين » قيل : من بدأ بالظلم ، وقيـــل : من تجاوز الحد فى القصاص ، وفى ذلك ايضا ترغيب فى العفو حيث لا يؤمن الوقوع فى الظلم عند الاقتصاص لمشقة وصعوبة تحرى المماثلة ، عـن النبى (ﷺ) : « اذا كان يوم القيامة نادى منـاد : من كان لـه على الله اجر فليقم ، قال : فيقوم خلق فيقال لهم : ما أجـــركم على الله ؟ فيقولون : نحـن الذين عفونا عمن ظلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة باذن الله (١) .

« ولمن انتصر بعد ظلمه ..... أولئك لهم عذاب اليم » . اى لا مؤاخذة لمن استرد حقا سلب منه بدون ظلم ولا زيادة ، انما الاثم والحرج على من يبدأون بالظلم ويبغون فى الأرض بالتكبر والافساد فيها ووضع الأمور فى غير مواضعها .

« ولمَن صَبَرَ وغفر » ...

أى من صبر على الظلم والاذى وترك الانتقام لله تعالى كان من ذوى عزم الأمور وعنه (ﷺ) أن زينب شتمت عائشة بحضرته وأخذ ينهاها فلا تنتهى ، فقال لعائشة : دونك فانتصرى – أخرجه مسلم ، وسب رجل آخر فى مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم – ويعرق ويمسح العرق ثـم قام فتلا الآية فقال الحسن : عقلها والله وفهمها اذ ضيعها الجاهلون .

٣ – مغفرة اساءات المشركين :

يأمر الله الرسول (ﷺ) بدعوة المؤمنين الى المغفرة بمعنى الصفح والعفو عن مساءات المشركين والمنافقين فى حقهم طلبا لثواب الله .

« قل للذين أمنوا يغفروا ... بما كانوا يكسبون » الجاثية : ١٤

---

(١) الكشاف ٤٧٣/٣ .

روى ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع عبدالله بن أبى فى غزوة بنى المصطلق ، فقد نزلوا على بئر يقال لها « المريسيع » فأرسل عبد الله غلامه لاحضار ماء فتأخر عليه ، فلما أتى سأله ما حبسك ؟ قال : غلام عمر بن الخطاب قعد على فم البئر ، فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى (ﷺ) وقرب أبى بكر ، وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء الا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، فبلغ عمر قوله ، فحمل سيفه متوجها اليه ليقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

وروى عن ابن عباس ايضا : « أنه لما نزلت : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » قال يهودى بالمدينة يدعى : فنحاص : احتاج رب محمد فلما سمع عمر بذلك حمل سيفه وخرج فى طلبه فجاء جبريل عليه السلام الى النبى (ﷺ) يقول له : ان ربك يقول لك : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله .. » ولما بلغ الرسول (ﷺ) أن عمر حمل سيفه وخرج فى طلب اليهودى أرسل اليه يطلب حضوره فلما جاء قال له : يا عمر ، ضع سيفك ، قال يا رسول الله ، صدقت ، اشهد أنك أرسلت بالحق ، قال : فان ربك يقول : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ... » قال عمر : لا جرم ، والذى بعثك بالحق لا ترى الغضب فى وجهى [1] .

« يغفروا » أى يعفوا ويتجاوزوا .

« للذين لا يرجون ايام الله » أى لا يرجون ثوابه ، أولا يخافون بأسه وانتقامه ، أولا يخافون البعث ، أولا يخافون مثل عذاب الأمم الخالية ، والأيام مجاز عن الوقائع من قولهم : « أيام العرب لوقائعها » .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٦١ .

« ليجزى قوما بما كانوا يكسبون » تعليل للامر بالمغفرة ، أى أمروا بذلك ليجزيهم الله يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من اعمال حسنة منها : كظم الغيظ ، والصبر على أذى الكفار ، والمراد بالقوم : المؤمنون الغافرون ، ويفيد التنكير : التعظيم لهم وانهم معروفون لا يخفى أمرهـــم ٠

٤ ـ العفو عن سيئات الأزواج والأولاد :

من أخلاق الاسلام وآدابه : الرد على الاساءة بالاحسان مصداقا لقوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينـــك وبينه عـــداوة كانـــه ولى حميـــم[1] ، والـــرد على الاساءة بالاحسان يكون أكثر قيمة وأعظم ثوابا عندما يكون من الانسان لمن لا يتوقع ولا ينتظر منهم الاساءة وهم الارحـــام وعلى رأسهم : الأولاد والازواج ، فيكون العفو عنهم سبيلا لنيل المغفرة من الله ٠

« يأيها الذين أمنوا ان من ازواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم ٠ انما أموالـــكم وأولادكم فتنـــة والله عنده أجر عظيم » سورة التغابـــن : ١٤ ، ١٥ ٠

ذكرت عدة روايات فى سبب النزول منها ما أخرجه الترمذى والحاكم وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : « يأيها الذين آمنوا ٠٠٠٠ الآية » فى قوم من أهل مكة اسلموا وارادوا ان يأتوا النبى (ﷺ) فأبى ازواجهم وأولادهم أن يدعوهم فلمـــا أتـــوا رسول الله (ﷺ) ووجدوا الناس قد فقهوا فى الدين « اى ازدادوا تفقها فى الدين وفهما لـــه » هموا أن يعاقبوهم فأنزل الله الآية وفى رواية أخرى عن ابن عباس ايضا قال : كان الرجل يريد

---

(١) سورة فصلت : ٣٤ ٠

الهجرة فتحبسه امرأته وولده فيقول : أما والله لـئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن « كناية عن التهديد لهم » فجمع الله بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله « يأيها الذين أمنوا ان من ازواجكم .... الآيـة (١) .

التحليل اللغـوى والبيانى :

« يأيها الذين أمنوا ان من ازواجكم .. فاحذروهم » أى أن بعضهم لا يؤمن جانبه فكونوا منهم على حذر ، وكذلك يكون بعض الازواج اعـداء لزوجاتهن فينبغى أن تتعامل زوجاتهن معهم بحذر .

« وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا » اى ان يكن منكم الستر وعـدم مقابلتهن بالعقاب على اساءاتهم القابلة للعفو والتى لا يترتب على العفو عنها ضرر أكبر أو آثم أشـد .

« فان الله غفور رحيم » أى يعاملكم بمثل ماعملتم مع الفضـل والاحسان والتعبير بالافعال الثلاثة : « تعفو وتصفحوا وتغفروا تأكيدا لذلك وضمانا لتحقق العفو والمغفرة فى هذا المقام الذى تقع الاساءة فيه ممن يحسن اليهم فلما كانت الاساءة الحادثة ممن احسنت اليه أبعث على الانتقام ناسب التأكيد بالافعال الثلاثة « تعفوا وتصفحوا وتغفروا » .

وقد استدل بهذه الآية على أنه لاينبغى للرجل أن يحقـد على زوجته وأولاده وأن لايدعو عليهم لجرم ارتكبوه .

---

(١) روح المعانى : ١٢٦/٢٨ ، وقال ابن عباس : نزلت هذه الآية بالمدينة فى عوف بن مالك الاشجعى ، شكا الى النبى (ﷺ) جفاء أهله وولده فنزلت ، وقال القاضى ابو بكر بن العربى : وهذا يبين وجـه العداوة فان العدو لم يكن عدوا لذاته وانما كان عدوا بفعله ، فاذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوا لذاته ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة . القرطبى ١٤٠/١٨ .

« انما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم .

« انما اموالكم وأولادكم فتنة » أى بلاء واختبار يحملكم على الوقوع فى المعصية وارتكـاب الذنوب ومنع حق الله فلا تطيعوهم فى معصية الله تعالى ، ففى الحديث : « يؤتى برجل يوم القيامة ويقال : اكل عياله حسناته » ، وأخرج الامام أحمد وأبوداود ... والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة والحاكم ، عن بريده قال : كان رســـول الله ﷺ يخطب فاقبل الحسن والحسين عليهما قميصـــان احمران يمشيان ويعثران ، فنزل (ﷺ) من المنبر فحملهما ثم صعد المنبر فقال : صدق الله « انما اموالكم واولادكم فتنة .. الآية » . انى لما نظــرت الى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم اصبر أن قطعت كلامـــى ونزلت اليهما .

وقدمت « الأموال » لأنها أعظم فتنة من الأولاد ، قال تعالى « كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى »(١) وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم والترمذى عن كعب بن عياض عنه (ﷺ) : « ان لكل أمـة فتنة وان فتنة أمتى المال » .

وقد جاءت « من » الدالة على التبعيض مع قوله تعالى : « أن من أزواجكم .. « للدلالة على أن الغالبية العظمى من الأزواج والأولاد ليسوا أعداء وانما البعض فقط ، ولم تذكر « من » فى قوله : « انمـا أموالكم وأولادكم فتنة » لأن فى جميع الأموال والأولاد فتنة لايستثنى من ذلك شىء .

« والله عنده أجر عظيم » وهى الجنة التى اعدها الله تعالى لمن قدم محبة الله تعالى على محبة الأموال والاولاد ، روى الشيخان من

---

(١) سورة العلق : ٦ ، ٧ .

حديث مبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله (ﷺ) ان الله يقول لأهل الجنة ، يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : « هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط احـدا من خلقك فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضـوانى فلا اسـخط عليكم بعده أبـدا(١) .

(١) القرطبى ١٨ / ١٤٠ وما بعدها .

الفصل الثالث

خصـائص المغفـرة الالهيـة

وردت المغفرة فى القرآن الكريم صفة لبعض الناس مقصودا بها كما رأينا اما الستر من المتصدقين لأحوال السائلين أو العفو والصفح عند الغضب ، أو الحلم عن سيئات الجاهلين والمشركين وذلك لا يتعارض مع كونها من صفات الله تعالى حيث نجد البون بعيدا بين اتصاف العبد بصفة لله تعالى ، وذلك أنها تكون بالنسبة له تعالى فى أعلى مراتبها بينما يتفاوت نصيب العباد منها على قدر أهليتهم لها .

وقد تبين لنا فى ذلك أن للمغفرة الالهية خصائص تتمثل فيما يلى : -

١ - أن مغفرته تعالى مرتبطة بمشيئته تعالى وغير مقيدة بالأسباب الظاهرة كالايمان والتوبة والعمل الصالح ومن ذلك قوله تعالى : **ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون . ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم** » (آل عمران : ١٢٨/١٢٩ ، ومن ذلك ايضا غفرانة تعالى لمن يستحق العقوبة فى قوله تعالى : « **واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى ان اقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك انت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما امرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وانت على كل شىء شهيد . ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم ، قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير** »

(المائدة : ١١٦ - ١٢٠)

ومن ذلك أيضا مغفرة لمن يشاء من عباده الظالمين فى قوله تعالى : « **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وان ربك لشديد العقاب** » .

(سورة الرعد : ٦ .)

٢ — مغفرته تعالى لمن يشاء من عباده تفضل منه ورحمة وليست مقابل عوض مادى أو معنوى كما تكون المغفرة من النـــاس ، وذلك ما يشير اليه قوله تعالى : « **واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى اتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين .** »

(سورة الأعراف : ١٥٥)

٣ — العدل المطلق فى توزيع المغفرة الآلهية كما وكيفا باختلاف من تشملهم مغفرته سبحانه ، وذلك كالفرق بين مغفرته تعالى للمؤمن التائب وبين مغفرته للكافر الذى يؤمن ويتوب على نحو ما يشير اليه قوله سبحانه : « **قالت رسلهم أفى الله شك فاطر الســموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدو ناعما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين . قلت لهم رسلهم أن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن ناتيكم بسلطان الا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** »

(سورة ابراهيم : ١٠ — ١٢)

٤ — مغفرته سبحانه تشمل الجن كما تشمل الانس ، وذلك فــى قوله تعالى : « **واذ صرفنا اليك نفــرا من الجن يستمعون القرآن فلمـا**

حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين • قالوا يـا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لمـا بين يديه يهـدى الى الحق والى طريق مستقيم • يـا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا بـه يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم » •

الأحقاف : ٢٩ — ٣٢

٥ — مغفرته سبحانه تكون فى الدنيا للمؤمنين والكافرين ، وتكون فى الآخرة لأهل الجنة كما يشير اليه قوله تعالى : **مثـل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من مـاء غير اسـن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لـذة للشاربين وانهار من عسـل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعائهم » •**

محمـد : ١٥ •

٦ — أنه تعالى جدير بمغفرة ذنوب عباده أيا كانت تلك الذنوب ومهما بلغ عددهم ، وكما يشير الى ذلك قوله تعالى :

« كلا أنه تذكرة • فمن شاء ذكره • وما يذكرون الا أن يشاء الله هـو أهل التقوى واهل المغفرة » •

المدثر : ٥٤ — ٥٦ •

(أ) مغفـرته تعالى مرتبطة بمشـيئته :

« ليس لك من الامر شىء او يتوب عليهم او يعذبهـم فانهـم ظالمون ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفـور رحيم » •

آل عمران : ١٢٨ — ١٢٩

رأينا فيما مضى أن نيـل مغفرة الله تعالى مقيد بأسباب منهـا الايمان بالله ، واتباع رسول الله (ﷺ) ، ونرى فى هاتـين الآيتين

أن المغفرة مردها فى الحقيقة الى مشيئة الله وارادته التى لا تتقيـــد بأسباب ظاهرة أو قيود مباشرة وذلك فيما يشبه أن يكون عتابا لرسول الله (ﷺ) على احساسه بالألم والمرارة مما فعله المشركون به وبالمسلمين فى غزوة أحد وشبه يأسه من ايمانهم واهتدائهم وهمه بالدعاء عليهم فنهى عن ذلك ، ودعى الى تفويض الأمر لله الذى لا يرتبط غفرانه بتوبة ولا تعذيبه بظـلم ، اذ أن لـه فى ملكه أسرارا لا يحيط بها أحـــد من خلقـه ولو كان رسول الله (ﷺ) ٠ فينبغى تسليم الأمر لـه والقيام بجميع فرائضه ثم تفويض الأمر لله فى القبول أو عدمه فذلك راجع الى مشيئته وعـد له ورحمته ، فليست كل طاعة توصل الى الجنة ، وليست كل معصية توصل الى النـار ٠

وقد وردت عدة روايات فى سبب نزول الآيتين الكريمتين منها : ما روى أن رباعية رسول الله (ﷺ) اصيب يوم أحـد أصـــابها عتبة بـن أبى وقاص وشجه فى وجهه فكان سالم مولى أبى حذيفة أو على كرم الله وجهه يغسل الدم والنبى (ﷺ) يقول :

كيف يفلح قوم صنعوا هذا بنبيهم ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] وأخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله (ﷺ) يوم أحد اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحرث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن امية فنزلت هذه الآية **ـ ليس لك من الأمر شىء » فتبت عليهم كلهم** [2] ٠

وروى أنه (ﷺ) استأذن يوم أحـد أن يدعو على الكفار لمـــا آذوه حتى انـه (ﷺ) صلى الظهر ذلك اليوم قاعـدا من الجـــراح وصلى المسلمون وراءه قعود ا فلم يؤذن له ونزلت هذه الآية [3] ٠

---

(١) روح المعانى ٢٩/٣ ٠
(٢) الســـابق ٠
(٣) الســـابق ٠

وقيل : لما رأى (ﷺ) والمسلمون ما فعل الكفار بأصحابه وبعمه حمزة من جدع الأنوف والآذان وقطع المذاكير قالوا : لئن أدالنا الله تعالى منهم لنفعلن بهم مثل ما فعلوا بنا ولنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب قط فنزلت ، وهذه الرواية متضافرة على أن الآية نزلت فى أحد(١) .

وعن مقاتل : أنها نزلت فى أهل بئر معونة ، وذلك أن رسول الله (ﷺ) أرسل أربعين وقيل سبعين رجلا من قراء أصحابه وأمر عليهم المنذر بن عمرو الى بئر معونة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم فاستصرخ عليهم عدو الله عامر بن الطفيل قبائل من سليم من عصية ورعل وذكوان فأحاطوا بهم فى رحالهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم الا كعب بن زيد أخابنى النجار فانهم تركوه وبه روق فلما علم بذلك رسول الله (ﷺ) حزن حزنا شديدا ، وقنت عليهم شهرا يلعنهم فنزلت هذه الآية ، فترك ذلك(٢) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم أو صنعوا ذلك بينهم » استبعاد لتوفيق وهداية الذين فعلوا ذلك به ، وقوله تعالى : « ليس لك من الأمر شىء » تقريب لما استبعده واطماع فى اسلامهم ، ولما أطمع فى ذلك قال :

« اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون » (٣) .

والمعنى : ليس اليك يا محمد من أمر خلقى الا أن تنفذ فيهم أمرى . وتنتهى فيهم الى طاعتى ، وانما أمرهم الى والقضاء فيهم بيدى دون غيرى أقضى فيهم وأحكم بما أشاء من التوبة على من كفر بى

---

(١) السابق .
(٢) السابق .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٩٩/٤ .

وعصانى وخالف أمرى أو العذاب اما فى عاجل الدنيا بالقتل والنقم الشديدة ، واما فى آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بى (١) .

وتوضح الآية ما ذكرناه من أن أمر المغفرة والتعذيب من اختصاص الله وحده ، ولا يرتبط بأسباب ظاهرة أو مباشرة كفعل الطاعات وارتكاب المعاصى وانما يرتبط ذلك بمشيئة الله وحده (٢) .

« أو يتوب عليهم .. » قيل : ان يتوب منصوب باضمار « ان » « وأن يتوب » فى حكم اسم معطوف بأو على الأمر أو على شىء أى ليس لك من أمرهم شىء أو من التوبة عليهم أو من تعذيبهم ، وقيل : أو بمعنى الا أن كقولك : لألزمتك أو تعطينى حقى على معنى ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم : أو يعذبهم فتشفى منهم (٣) .

« ولله ما فى السموات ... والله غفور رحيم » تقديم الخبر لافادة الحصر والاختصاص بملكية الله للسموات والأرض مما يعبر عن جدارته بالغفرة لمن يشاء وتعذيب من يشاء :

« وما » عامة للعقلاء وغيرهم ، أى له سبحانه ما فى هذين النوعين ، سو ما فى هاتين الجهتين خلقا واقتدارا لا مدخل لأحد معه فى ذلك فالأمر كله له يفعل ما يشاء وبحكم بما يريد .

وايثار كلمة « من » فى الموضعين لاختصاص المغفرة والتعذيب بالعقلاء ، وتقديم « المغفرة على التعذيب » للايذان بسبق رحمته تعالى على غضبه (٤) .

---

(١) جامع البيان للطبرى ٥٦/٣ .
(٢) السابق .
(٣) السابق .
(٤) روح المعانى ٥١/٤ .

ويعلق الالوسى على الآية بما سبق أن ذكرناه من ارتباط ذلك بالمشيئة وحدها فيقول : « وظاهر الآية يدل على أن مغفرة الله وتعذيبه غير مقيدين بشىء اذ هو لاثبات أنه سبحانه المالك على الاطلاق فله أن يفعل ما يشاء لا مانع له من مشيئته ، ولو كانت مغفرته مقيدة بالتوبة وتعذيبه مقيدا بالظلم لم يكن فاعلا لما يشاء بل لما تستدعيه التوبة ... أو الظلم ، فالآية ظاهرة فى نفى الوجوب على الله تعالى وأنه سبحانه يجوز أن يغفر لمذنب ما ويعذب المصلح وهو مذهب الجماعة[1] .

(ب) الغفران لمن يستحق العقوبة :

عرفنا فيما مضى أن مغفرة الله لا يدرك أحد كنهها ، وأنها لا ترتبط بأسباب من الايمان وفعل الطاعات كما قال تعالى :

« ولله ملك السموات .. يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ... »

أى أنها مرتبطة بمشيئته تعالى ، وهو تعالى لا يصنع بعباده ، الا ما فيه مصلحتهم ولو جاء ذلك على غير ما يتوقعون وعلى خلاف الأسباب الواضحة لهم .

كذلك يعلمنا ربنا على لسان سيدنا عيسى عليه السلام أن من خصوصيات مغفرة الله تعالى أنها تشمل المستحق للعقوبة لأنه العزيز أى القوى الغالب والحكيم أى الذى يضع كل شىء فى موضعه .

« واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس .... على كل شىء قدير » .

المائدة : ١١٨ .

« واذ قال الله يا عيسى بن مريم ...... »

اختلف فى الوقت الذى جرى فيه ذلك القول ، فذكر بعض المفسرين : انه كان حين رفع سيدنا عيسى عليه السلام الى السماء وقالت

---

(١) السابق .

النصارى فيه ما قالت ، واحتجوا بأن « اذ » فى كلام العرب لـما مضى ، وأكثر المفسرين على أن ذلك يجرى يوم القيامة وذلك هو الأرجح بدليل مـا ورد قبل ذلك من قوله سبحانه : « يوم يجمع الله الرسل .... » (١) الآية ، وما بعده من قوله سبحانه : « هـذا يوم ينفـع الصـادقين صدقهم » (٢) « واذ » بمعنى « اذا » كقوله سبحانه : ولو ترى اذ فزعوا » (٣) أى اذا فزعوا فالتعبير عن المستقبل بلفظ الماضى للدلالة على تحقق الوقو عكقوله سبحانه : « ونادى أصـحاب النار أصـحاب الجنـة .... » (٤) .

واختلف فى المراد بذلك الاستفهام على قولين :

أحدهما : أنه سأله عن ذلك توبيخا لمن ادعى ذلك عليه ليكون انكاره بعد السؤال أبلغ فى التكذيب واشـد فى التوبيخ والتقريع .

وثانيهما : أنه قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيروا بعـده ، وادعـوا عليه ما لم يقـله (٥) .

فان قيل : ان النصارى لم يتخذوا مريم الها فكيف قـال ذلك فيهم ؟

قيل : لما كان من قولهم انها لم تلد بشرا وانما ولدت الهـا لزمهم أن يقولوا : أنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته فصاروا حين لزمهم ذلـك بمثابة القائلين له .

« قال سبحانك » بدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين :

أحدهما : تنزيها لـه عما أضيف اليه .

---

(١) سورة المائدة : ١٠٩ .
(٢) المائـدة : ١٢١
(٣) سورة سـبأ : ٥١
(٤) سورة الأعراف : ٥٠ وانظر : الجامع لأحكام القرآن ٣٧٥/٦
(٥) المرجع السـابق .

الثانى : خضوعا لعزته وخوفا من سطوته ٠

« ما يكون لى ٠٠٠ بحق » أى ما ينبغى لى أن أعطى نفسى أو ادعى لها ما لا تستحقه فانى معبود ولست عابدا ٠

« ان كنت قلته فقد علمته » رد ذلك الى علمه سبحانه وكان تعالى يعلم أنه لم يقله ، ولكنه سأله عنه تقريعا وتوبيخا لمن اتخذ عيسى الها ٠

« تعلم ما فى نفسى ٠٠ نفسك » أى تعلم سرى وما انطوى عليه ضميرى الذى خلقته ولا أعلم شيئا مما استأثرت به من غيبك وعلمك ٠

« انك أنت علام الغيوب » ما كان وما يكون ، وما لم يكن وما هو كائن ٠

« ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ٠٠٠ وربكم » أى ما قلت لهم الا قولا أمرتنى به وذلك القول هو : أعبدوا الله ربى وربكم ٠٠٠ وكان الأصل أن يقال : ما أمرتهم الا بما أمرتنى به ، الا أنه وضع القول موضع الأمر نزولا على موجب الأدب ولئلا بجمع بين أمره وأمر ربه [١]٠

« وكنت عليهم شهيدا ٠٠ فيهم « أى كنت أشهد على ما يفعلون مدة دوامى فيهم ٠

« فلما توفيتنى ٠٠٠٠ » قيل : هذا يدل على أن الله توفاه قبل أن يرفعه وليس بشىء ، لأن الأخبار تظاهرت برفعه ، وأنه فى السماء حى ، وأنه ينزل ويقتل الدجال ، وانما المعنى : فلما رفعتنى الى السماء ٠

« كنت أنت الرقيب عليهم » أى الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم ٠

« وأنت على كل شىء شهيد » أى من مقالتى ومقالتهم ، أو على من عصى وأطاع ٠

---

(١) التفسير الكبير ١٣٥/١٢ ، والقرطبى : ٦/ ٣٧٦ ٠

« ان تعذبهم فانهم عبـادك ...... الحكيم » .

اختلف فى تاويله فقيل : قاله على وجه الاستعطاف لهم والرافة بهم، ولهذا لم يقل : فانهم عصوك ، وقيل : قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من عذابه ، وهو يعلم أنه لا يغفر لكافر ، وقيل : الهـاء والميم فى : « وأن تعذبهم » لمن مات منهم على الكفر ، والهاء والميم فى « وان تغفر لهم » لمن تاب منهم قبل الموت ، وهذا حسن .

وقال : « فانك أنت العزيز الحكيم » ولـم يقل : « فانك أنت الغفور الرحيم » على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره والتفويض لحكمه ، وذلك أن الغفران لمن يستحق العقوبة لا يملكه أحد سـوى العزيز القادر الذى لا يغلب على أمره ، وهو الحكيم الذى يضع الشىء فى موضعه - وذلك يعرف بتشابه الأطراف هو أن يختم الكلام بما يناسب أوله فى المعنى .

أخرج مسلم من غير طريق عن عبد الله بن عمرو . بن العاصى أن النبى (ﷺ) تلا قول الله فى ابراهيم : « رب انهن أضللن .... غفور رحيم » الآية(١) وقـول عيسـى : » ان تعذبهـم ... العزيز الحكيم »(٢) فرفع يديه وقال : اللهم أمتى وبكى فقال الله يا جبريل : اذهب الى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك فاتاه جبريل فساله فاخبره رسول الله (ﷺ) بما قال وهو اعلم ، فقال الله : ياجبريل : اذهب الى محمد فقل له : أنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك(٣) .

« قال الله هذا يوم .... صدقهم »

---

(١) سورة ابراهيم : ٣٦ .
(٢) سورة المائدة : ١١٨ .
(٣) القرطبى : ٣٧٨/٦ .

اجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يـوم القيامـة ، والمعنى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم فى القيامة ، والدليل على أن المراد ذلك : أن صدق الكفار يوم القيامة لا ينفعهم ، اذ لا ينفع ابليس قوله : « وقال الشيطان لما قضى الأمر .... فأخلفتكم » الآية(١) . فلم ينفعه هذا الصدق ، وهذا الكلام تصديق من الله لعيسى فى قوله : « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ....(٢) .

« لله ملك السموات والأرض .... على كل شىء قدير » قيل : أن هذا جواب عن سؤال مقدر كأنه قيل : من يعطيهم ذلك الفوز العظيم ؟ فقيل : الذى له ملك السموات والأرض .

وقال : وما فيهن « ولم يقل : « ومن فيهن » بتغليب غير العقلاء على العقلاء للتنبيه على أن كل المخلوقات مسخرة له ، وهم فى ذلك التسخير كالجمادات التى لا قدرة لها وكالبهائم التى لا عقل لها ، فعلم الكل بالنسبة الى علم الله كلا علم ، وقدرة الكل بالنسبة الى قدرته(٣) . كـلا قدرة .

عن رسول الله (ﷺ) : « من قرأ سورة المائدة أعطى من الأجر عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات بعدد كل يهودى ونصرانى يتنفس فى الدنيا(٤) .

(جـ) مغفرة الله للظالمين مع ظلمهم لمشيئته فى ذلك :

عرفنا أن مغفرة الله لعباده لا يتقيد بقيود ، ولا يدرك كنهها الا الله وحده - ويضيف الحق تبارك وتعالى فى الآية التالية بعدا آخر وهو

---

(١) سورة ابراهيم : ٢٢ .
(٢) التفسير الكبير ١٣٨/٩٢ والكشاف : ٦٥٨/١ .
(٣) السـابق .
(٤) الكشاف : ٦٥٩/١ .

أن مغفرته تعالى وفقا لمشيئته تشمل الظالمين مع ظلمهم أى مع ارتكابهم للذنوب صغيرها وكبيرها ، ويرى المعتزلة أن ذلك مقتصر على الصغائر من الذنوب ، بينمـا يرى أهل السنة أنها تشمل الصـغائر والكبائر ونميل لرأى أهل السنة حيث انه يتوافق مع ما صرح به الله تعالى من أنه «يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » فهو سبحانه صاحب العفو وصاحب المغفرة لمن يشاء بفضله ويعذب من يشاء بعدله « لايسال عما يفعل »

« ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ··· لشديد العقاب »
(الرعـد : ٦ ·)

« ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » أى لشدة انكارهم وتكذيبهم يطلبون انزال العذاب بهـم ليكون دليلا على بعـث الرسول اليهـم كقولهم : « واذ قالوا اللهم أن كان هذا هو الحق من عندك ··· »(١) الآية ، ورد الله عليهم بأنه لم يكن ليعذبهم والرسول (ﷺ) فيهـم والمسلمون يستغفرون الله من بينهم ، قال قتادة : طلبوا العقوبة قبـل العافية ، وقد حكم سبحانه بتاخير العقوبة عن هذه الأمـة الى يوم القيامة ، وقيل : « قبل الحسنة » أى قبل الايمـان الذى يرجى بـه الأمان والحسنات ·

« وقد خلت من قبلهم المثلات » جمع مثلة كسمرة وسـمرات — وهى العقوبة الناضجة ، والجملة فى موضع الحال لبيان تهافت وضعف رأيهم فى استعجال العذاب بطريق الاستهزاء أى — يستعجلونك بذلك منكرين حدوث ما تنذرهم به مما نزل بأمثالهم من المكذبين المستهزئين فى الأمم الماضية ·

« وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » أى لأنفسهم بالذنوب

(١) سورة الأنفال : ٣٣

والمعاصى ، والجار والمجرور فى موضع الحال من الناس ، أى أنه تعالى غفور للناس مع كونهم ظالمين .

وأهل السنة يأخذون بظاهر الآية من جواز مغفرة الله للذنوب صغيرها وكبيرها بدون توبة لأنه سبحانه ذكر المغفرة مع الظلم أى الذنب ولا يكون معه الا قبل التوبة ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، آما المعتزلة فانهم يتأولون ذلك بأن المراد : مغفرة الصغائر لمجتنب الكبائر ، أو مغفرتها لمن تاب ، أو يراد بالمغفرة معناها اللغوى وهو الستر بالامهال وتاخير العقاب الى الآخرة بمعنى : أنه تعالى لايعجل للناس العقوبة وان كانوا ظالمين بل يسترها عليهم بتاخيرها .

ونرى أن الأرجح هو رأى أهل السنة اعتمادا على ماذكره الله تعالى من مغفرته لمن يشاء ، وتلك حالات معينة يختص بها الله من يشاء من عباده وليس حكما عاما حتى لا يقال : أنه مما يدعو الى كثرة وقوع الظلم وحدوث المعاصى .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : أرجى آية فى كتاب الله « وأن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم .... »

ويراد بالناس : اما المعهودون وهم المستعجلون قبل ، أو جنس الناس وذلك هو الأرجح .

«وان ربك لشديد العقاب » عن سعيد بن المسيب قال : « لما نزلت : » وان ربك لذو مغفرة .... لشديد العقاب »[1] قال ﷺ : « لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحدا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لا تكل كل أحد » .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٨٤/٩ وروح المعانى ١٠٦/١٣

٢ - مغفرة الله تعالى تفضل منه ورحمة .

نعرف أن المغفرة تعنى الستر وأنها من الصفات التى يوصف بها بعض الناس وقد ورد فى القرآننسبتها الى غير الله ، لكن ذلك لا يعنى أنها عند الناس مثلها عند الله ، وانما البون بعيد بين مغفرة الله ومغفرة غيره ، فمغفرة الله تأتى فضلا منه وعدلا وليست فى مقابل شىء بخلاف مغفرة غيره ، ولذلك تختم الآية التالية بأنه سبحانه : « خير الغافرين »

« واختار موسى قومه ... وأنت خير الغافرين »

(الاعراف : ١٥٥)

« أنت ولينا » أى أنت لا غيرك القائم بأمورنا الدنيوية والأخروية من قصر الموصوف على الصفة .

« فاغفر لنا وارحمنا » يفيد العطف بالفاء تـــرتيب الدعاء على ما قبله من الولاية ، لأن من شأن من يلى الأمور ويقوم بها دفع الضر وجلب النفع ، وقدم طلب المغفرة على طلب الرحمة من تقديم التخلية على التحلية .

« وأنت خير الغافرين » أى أن كل من يكون منه الغفران غيرك يقع ذلك منه لغرض كحب الثناء ودفع الضرر ، وأنت تغفر لا لطلب عوض ولا غرض ، بل لمحض الفضل والكرم - والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبل ، وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم(١) .

٣ - العدل المطلق فى توزيع المغفرة .

« قالت رسلهم أفى الله شك ... فليتوكل المتوكلون »

(ابراهيم : ١٠ - ١٢)

---

(١) روح المعانى : ٧٥/٩ .

المؤمن الذى يستغفر الله ويتقبل الله استغفاره تكون مغفرة الله له يستر جميع ذنوبه التى وقعت منه فى حق الله تعالى ، ولذلك نـرى الآيات التى تتحدث عن المغفرة للمؤمنين تأتى على صيغة : « يغفر لكم ذنوبكم » بدون «من» قبل «ذنوبكم» وذلك فى الغالب ، بخلاف الكافر فانه اذا تاب واستغفر الله من ذنوبه فان الله يتجاوز عن سيئاته التى وقعت منه فى حق الله قبل الكفر وتبقى ذنوب العباد حتى يتجاوز عنها أصحابها ولذلك تتحدث آيات المغفرة عن الكفار غالبا بهذه الصـــيغة « يغفر لكم من ذنوبكم » بذكر « من » قبل « ذنوب » ٠

التحليل اللغوى والبيانى :

« قالت رسلهم أفى الله شك » دخلت همزة الاستهام على الظرف لأن الكلام ليس فى الشك انما هو فى المشكوك فيه وأنه لايحتمل شكا لظهور الأدلة وشهادتها عليه ٠

« فاطر السماوات والأرض » أى مبدعهما ومافيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقيق ما أنتم فى شك منه ٠ « يدعوكم ليغفر لكم » أى يدعوكم الى الايمان ليغفر لكم ٠

« ومن » للتبعيض ، وتفيد الفرق بين حديث الله بالمغفرة عن المؤمنين وحديثه بها عن المشركين حيث يسبق مع الكافرين « بمن » كما هنا ، ولا تسبق بمن مع المؤمنين ، وقيل : ان وجود « من » قبل « ذنوبكم » معناه : أنه يغفر لهم مابينهم وبين الله بخلاف مابينهـم وبيـن العبـــاد من المظـــالم ونحوهـــا ، ولا تعـــارض فـى ذلـك بين هذا المعنـــى وما ذكـــره أهـــل الحديث فى تناولهـــم حديـث رسول الله (ﷺ) : « ان الاسلام يجب ما قبله » أى يرفع ماقبلـــه مطلقا حتى المظالم وحقوق العباد ، فقد ذكر « أبو حيان » فى البحر المحيط : أنه يراد بالبعضية التى يدل عليها التعبير « بمن » ما كان قبل

الاسلام ، وذلك لا يتنافى مع الحديث وتكون الآية وعدا بغفران ما تقدم لا بغفران ما يجىء فيكون مسكوتا عنه باقيا تحت المشيئة .

« ويؤخركم الى أجل مسمى » أى الى وقت قد ســماه الله وبين مقداره يبلغكموه ان آمنتم والا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت .

«قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا» أى ما أنتم الا بشر مثلنا لا فرق بيننا وبينكم وليس لكم فضل يؤهلكم لما تدعون من الرسالة .

« تريدون أن تصدونا ... آباؤنا » أى تقصدون بما تدعوننا اليه من التوحيد أن تصرفونا عما ألفنا عليه آباءنا وأجدادنا .

« فأتونا بســلطان مبين » أى بحجة بينة تدل على فضــلكم واستحقاقكم تلك المرتبة وصحة ما تدعونه من الرسالة ان لم يكن الأمر كما ذكرنا وكنتم رسلا من قبله تعالى حتى نترك ما ألفناه عن آبائنا ، وواضح ما فى ذلك من عناد وتعنت ومكابرة اذ جاءتهم الرسل من عند الله بالآيات الظاهرة التى يخر لها الجبال الصم .

« قالت لهم رسلهم ... » تسليم لقولهم وأنهم بشر مثلهم وذلك من مجاراة الخصم والتسليم له بالمقدمات حتى يعثر ويفحم .

« ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » أى ان الله تعالى قد اختصنا بفضله وامتنانه ، والبشرية غير مانعة لمشيئته جل وعز . فلا تعارض ولا تنافى اذا بين نبوتنا وكوننا بشرا .

وفى العدول عن قولهم : « ولكن الله من علينا الى ما فى النظم الجليل » « ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » « تواضع واضح منهم عليهم السلام .

« وما كان لنا أن نأتيكــم ... باذن الله » أى ماصـــح ومــا استقام لنا أن نأتيكم بحجة ما من الحجج فضلا عن السلطان المبين الذى

اقترحتموه الا باذن الله ومشيئته · « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » أى عليه وحده دون ما عداه يكون اعتمادنا فى الصبر على معاداتكم ومعاندتكم والأمر بالتوكل على الله موجه لجميع المؤمنين الا أنهم يقصدون بـه أنفسهم بالدرجة الأولى ·

« وما لنا ألا نتوكل ··· سبلنا » أى أى عذر لنا فى عدم التوكل على الله وقد فعل بنا ما يوجب توكلنـا عليه وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذى يجب عليه سلوكه فى الدين ·

ولا تكرار فى الدعوة الى التوكل على الله ، فالأول استحداث له ، وقولـه : « فليتوكل المتوكلون » يراد به : ثبات المتوكلين على مـا استحدثوا من توكلهم[1] ·

٤ ـ مغفرة الله لمؤمنى الجنـن :

سيدنا رسول الله (ﷺ) مبعوث الى الجن كبعثته الى الأنس ، لذلك ينطبق على الجن ما ينطبق على الأنس من : الاستغفار والمغفرة ·

« واذ صرفنا اليك نفرا من الجن ··· ويجركم من عذاب اليم »
(الاحقاف : ٣١)

روى أن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا ما هذا الا لنبأ حدث ، فنهض سبعة أو تسعة منهم حتى بلغوا تهامة واندفعوا الى وادى نخلة فوافقوا رسول الله (ﷺ) وهو قائم يصلى فى جوف الليل أو فى صلاة الفجر فاستمعوا لقراءته وذلك بعد عودته من الطائف وعدم استجابة أهل الطـائف لما دعاهم اليـه وايذائهم له مع السفهاء من ثقيف ·

---

(١) الكشـاف ٣٦٩/٢ وما بعدهـا وروح المعـانى ١٩٩/١٤ ومابعدها ·

وقيل : بل أمر الله رسوله أن ينذر الجن ويقرأ عليهم فصرف اليه جماعة منهم ، فقال (ﷺ) انى أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فمن يتبعنى ؟ قالها ثلاثا ، فسكتوا الا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه الذى يقول : لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى ، فانطلقنا حتى اذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون خط لى خطاً وقال : لاتخرج منه حتى أعود اليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول الله (ﷺ) وظهر سواد كثير حال بينى وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم انقطعوا كقطع السحاب ، فقال لى (ﷺ) : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم ، رأيت رجالا سودا فى ثياب بيض ، فقال : أولئك جن نصيبين ، كانوا اثنى عشر الفا . والسورة التى قرأها عليهم رسول الله (ﷺ) « اقرأ باسم ربك »(١) .

التحليل اللغوى والبيانى :

« واذ صرفنا اليك نفرا ... القرآن » أى وجهناهم اليك وجعلناهم يقبلون عليك ، والنفر : ما دون العشرة ، ويجمع على : أنفار .

« فلما حضروه قالوا انصتوا » أى فلما حضروا عند النبى (ﷺ) وسمعوه يقرأ القرآن طلبوا من بعضهم الانصات والتدبر لاستماع القرآن منه ﷺ .

« فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين » أى بعد أن فرغ الرسول (ﷺ) من القراءة انصرفوا الى اخوانهم من الجن يدعونهم الى الايمان بالله ورسوله والاهتداء بالقرآن ليغفر الله لهم ذنوبهم وينجيهم من عذاب النار ، ويدل ذلك على أنهم آمنوا بالنبى (ﷺ) . كما

---

(١) ٥٢٦/٣ .

يؤكد ذلك قولهم : « يا قومنا اجيبوا داعى الله .. » ولولا ذلك لما انذروا قومهم[١] .

« قالوا يا قومنا انا سمعنا ... موسى » أى القرآن ، وذكرهم لموسى عليه السلام دون عيسى عليه السلام لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين ، ولأن الكتاب المنزل عليه وهو التوراة أجل الكتب قبل القرآن ، وكان عيسى عليه السلام مامورا بالعمل بمعظم ما فيه أو كله[٢] .

« مصدقا لما بين يديه » أى لما قبله من التوراة ، أو لجميع الكتب الالهية السابقة .

« يهدى الى الحق » أى الى دين الله الحق ، أو الى الحق من العقائد الصحيحة .

« والى طريق مستقيم » أى الى دين الله القويم ، أو الى الأحـــكام الفرعية ، أو ما يعمها وغيرها من العقائد .

« يا قومنا أجيبوا داعى الله » أى رسول الله محمد (ﷺ) وما جاء به من الاسلام والقرآن ، وفى ذلك دلالة على بعثته (ﷺ) الى الجن والانس ، وقيل : لم يبعث الله نبيا الى الجن والانس قبل محمد (ﷺ) ، ويدل على ذلك ما جاء فى صحيح مســلم عن جــابر بن عبد الله الانصارى قال : قال رسول الله (ﷺ) : « أعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلى ، كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى كل احمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهورا ومسجدا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة » قيل :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١٠/١٦
(٢) روح المعانى ٣٢/٢٦ .

الاحمر والاسود : الجن والانس ، وفى رواية من حديث أبى هريرة : « وبعثت الى الخلق كافة ، وختم بى النبيون »(١) ٠

« يغفر لكم من ذنبوكم ويجركم من عذاب أليم » وتفيد « من » التبعيض حيث ان من الذنوب ذنوبا لا تكفر الا بردهـا لأصـحابها ، أو عفوهم عنها كالمظالم ونحوها فلا يكفى الايمان فى مغفرتها ٠

وفى ذلك دلالة أيضا على أن الجن كبنى آدم يثابون ويعاقبون وليس كما يرى بعض العلماء من أنه لا ثواب لهم الا النجاة من النـار لقوله تعالى : « ويجركم من عذاب اليم » ٠

« ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض » أى لن يجد له مكانا يهرب اليه من قضاء الله ٠

وليس له من دونه أولياء » أى لن يجد له أنصارا يمنعونه من عذاب الله وفى ذلك دلالة على استحالة نجاته بوساطة الغير عقب الدلالة على استحالة نجاته بنفسه ٠

« أولئك فى ضلال مبين » أى أولئـك الذين لايجيبون داعـى الله فى ضلال ظاهر لا يخفى على أحد باعراضهم عن الاستجابة لداعى الله ٠

وترشدنا الآيات السابقة الى أمور منها : –

* الانصات لكلام الله والتدبر فى معانيه وأحكامه من خير سبل الهداية ٠
* بعثته (ﷺ) للجن كما أنه مبعوث الى الانس ٠
* على من بلغته الدعوة أن يقوم بتبليغها للناس ٠
* الايمان والطاعة من سبل تكفير الذنوب فى حق الله ٠
* ذنوب العباد لا يكفى الايمان فى تكفيرها ٠
* لا مفر ولا مهرب من قضاء الله وقدره ٠

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢١٧/١٦ ٠

٥ ـ مغفرة الله لأهل الجنة :

ذكر الله تعالى أنه أعد لأهل الجنة وجوها من النعيم منها : مغفرته لهم فماذ يراد بتلك المغفرة ؟

« مثل الجنة التى وعد المتقون ٠٠٠٠ فقطع أمعاءهم »

« مثل الجنة التى وعد المتقون » المثل : الصفة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ والخبر محذوف تقديره : ما تسمعون ، أو فيما يتلى عليكم ، أو فيما قصصنا عليك ٠

« فيها أنهار من ماء غير آسن » أى لا يتغير طعمه ولا ريحه بطول مكث ونحوه وماضيه : أمن بالفتح من باب ضرب ونصر ٠

« وأنهار من لبن لم يتغير طعمه » أى لا يحمض ولايحدث له أى شىء يغير مذاقه وحلاوته كألبان الدنيا ٠

« وأنهار ، من خمر لذة للشاربين » أى ليس فيها ما فى الدنيا من الحموضة والسكر وكراهة الطعم والرائحة ٠

« وأنهار من عسل مصفى » أى منقى مما يخالفه فلا يخالطة الشمع وفضلات النحل وغيرها ٠

وذلك على ما قيل : تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة فى الجنه بأنواع ما يستطاب منها أو يستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينقصها وينغصها ، والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها :

وبدىء بالماء لأنه مما لا يستغنى عنه فى الدنيا ، ثم باللبن لقيمته العظيمة فى الغذاء وكان يعتمد عليه فى كثير من الأوقات عند العرب ، ثم بالخمر لتأديتها لعنصر اللذة بعد الطعام والشراب ، ثم العسل اذ

كان عنصر الشفاء فى الدنيا لما تسببه المطعومات والمشروبات من أوجاع والآم(١) .

« ولهم فيها من كل الثمرات » أى لهم مع ما سـبق من الانهار أنواع من جميع الثمار .

« ومغفرة من ربهم » مبتدأ خبره محذوف ، والجملة معطوفة على السابقة ، أى : ولهم مغفرة ، والكلام على حذف مضاف ، أى : ونعيم مغفرة ، أو يراد بالمغفرة اثرها وهو النعيم أو رضوان الله عز وجل ، أو ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم حتى لا يستحيوا فتتنغص لذتهم ، أمـا المغفرة لهم فى الدنيا وقبل دخول الجنة فيراد بها ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها (٢) : وقيل : يراد بالمغفرة فى الجنة : رفع التكليف عنهـم فيأكلون ويتمتعون بغير حساب بخـلاف ذلك فى الدنيا حيث لابد من الثواب أو العقاب . وقيل : ان الآكـل فى الدنيا لابد أن يترتب على ماكله ومشربه أمر قبيح مكروه كمرض أو حاجة الى تبرز بخلاف طعام وشراب الجنة فلا ينتج عنه إلا كل أمر محمود(٣) .

وجميع هذه الوجوه تبدو مقبولة ومحتملة فى تفسـير المراد من مغفرة الله لأهل الجنة .

ويفيد التنوين فى « ومغفرة » التعظيم ، أى مغفرة عظيمة لأحد لها . كما يزيد من وصفها بالعظمـة نسـبتها الى الله فى قوله « من ربهم » اذ تفيد تلك الاضافة عظمة المغفرة بكونها من الرب .

« كمن هو خالد فى النار ... » خبر لمبتـدأ محذوف تقديره : أمن هو خالد فى هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد فى النار ، وقيل : أنه خبر لقوله : مثل الجنة » .

---

(١) روح المعانى : ٤٧/٢٦ .
(٢) روح المعـانى : ٤٩/٢٦ .
(٣) التفسير الكبير ٥٥/٢٨ .

والضمير المفرد « هو » يعود الى « من » باعتبار لفظها ، كما يعود ضمير الجمع فى قوله تعالى : « وسقوا مـــاء حميما » اليهـا باعتبار معناها ، والمراد : وسقوا ماء حارا مكان تلك الأشربة ، وفيه تهكم بهـم .

« فقطع أمعاءهم » من شدة حرارته ، روى أنه اذا اقترب منهم شوى وجوههم ، فاذ شربوه قطع أمعاءهم(١) .

٦ ـ الله جدير بمغفرة ذنوب عبـــاده :

عرفنا أن من شروط دعاء العبد ربه بطلب المغفرة وغيرهـــا أن يدعو وهو متيقن من اجابة الله دعاءه ، وقد مر بنا عدد من الأحاديث التى ترشدنا الى أن العبد مهما تعاظمت ذنوبه فان مغفرة الله أعظـم منها ، وتصرح الآيات التالية أنه سبحانه أهل أى جدير بالمغفرة .

« كلا انه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

المدثر : ٥٦ .

« كـلا » ردع للاعراض عن التذكر .

« انه تذكرة » أى ان القرآن حقـا موعظة بليغة كافية . فمـن شاء ذكره » أى من جعله نصب عينيه اتعظ واعتبر به « وما يذكرون الا أن يشاء الله » أى لا يمكنهم الاتعاظ بالقرآن والاهتداء بهديه ، والتأدب بآدابه وأخلاقه الا بمشيئة الله . « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » أى ان الله عز وجل حقيق بـــأن يؤمن به الناس ويطيعوه ويخافوا عقابه وهو حقيق بأن يغفر ما مضى من كفرهم اذا آمنوا بـه وأطاعوه . أخرج الترمذى وابن ماجة عن انس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال فى هذه

---

(١) روح المعاني : ٤٩/٢٦ .

الآية : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » قال : قال الله تعالى : انـا أهـل أن أتقـى ، فمـن اتقانى فلم يجعل معى الها فأنا أهل أن أغفـر لـه وقيـل : هو أهل المغفرة لمن تاب اليه من الذنوب الكبائر وأهل المغفرة أيضـا للذنوب الصغائر باجتناب الكبائر (١) .

وأخرج الترمذى أيضا عن الحسن قال : قال رسول الله (ﷺ) : يقول الله تعالى : انى لأجدنى أستحى من عبدى يرفع يديه الى ثـم يردهما من غير مغفرة قالت الملائكة : الهنا ليس ذلك بأهل ، قال الله تعالى : لكنى أهل التقوى وأهل المغفرة ، أشهدكم أنى قد غفرت له (٢) .

★ ★ ★

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٩٠/١٩
(٢) روح المعانى : ١٣٥/٢٩ .

الفصل الرابع

من مواقف الدعاء بالمغفرة

تعليم الله عباده أن يسـألوه المغفرة فى الدنيـا والآخـرة وعنـد نزول البـلاء

من رحمة الله تعالى بعباده ولطفه بهم انه لم يتركهم لأنفسهم حـتى فيما يتوجهون به اليه من أدعية ، وانما يأخذ بيدهم فيرشدهم ويوجههم الى أن يقصدوا بدعواتهم ما فيه منفعتهم ولا شك أن فى مقدمة منافع الانسان التى يأمل ويرجو تحقيقها : غفران ذنوبه ومحـو سيئاته ليلقى الله خفيف الأوزار فينجو من عذابه ويفوز بجنته ، ولذلك نرى رب العـزة سبحانه يعلم عبـاده من خلال آيات القرآن الكريم عددا من الأدعية التى يتوجهون اليه بها فى مواقف محددة وفى مقدمة ذلك : الدعاء بالمغفرة فى الدنيـا كما فى هذه الآيات من ختام سورة البقرة :

« آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنين كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسـله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير • لا يكلف الله نفسا الا وسعها لهـا ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنـا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين •

سورة البقرة : ٢٨٥ – ٢٨٦ •

– وفى الدعاء بها يوم القيامة فى قوله تعالى : **« يأيهـا الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنـكم سـيئاتكم ويدخلكم جنات تجـرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين امنوا معـه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا اتمم لنـا نورنا واغفر لنـا انك على كل شىء قدير » •**

سورة التحـريم – ٨

ـ وعند نزول البلاء رضا بأمـر الله وذلك فى قوله تعـالى : « وكاين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا أن قالوا ربنـا اغفر لنـا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٨ .

١ ـ تعليم الله عباده أن يسألوه المغفرة فى الدنيا :

« آمن الرسول بما أنزل اليـه ... على القوم الكافرين »

البقرة : ٢٨٥ : ٢٨٦

قيل ان تلك الآية نزلت بعد الآية السابقة « لله مـا فى السماوات وما فى الارض وان تبدوا ... « لان المؤمنين برسول الله من أصحابه شـق عليهم ما توعدهم الله به من محاسبتهم على ما أخفته نفوسـهم فشكوا ذلك الى النبى (ﷺ) فقال لهم رسول الله (ﷺ) : لعلـكم تقولون سمعنا وعصينا كما قالت بنـو اسرائيل فقالوا بل نقول سمعنا واطعنا فانزل الله ذلك من قول النبى وقول أصحابه [١] .

التحليـل اللغـوى والبيـانى :

« وقالوا سمعنا وأطعنا » تقديم السمع على الطاعة لتقديم العام على الخاص ، او لان التكليف طريقة السمع والطاعة بعده .

« غفرانك » مصدر منصوب باضمار فعل تقديره اغفر أو استغفر والدعاء هنا بالمغفرة يقصد به طلب الستر من الله على ذنوب من غفر لـه وصفحه له عن هتك ستره بها فى الدنيا والآخرة [٢] وتقديم « السمع

---

(١) جامع البيان للطبرى : ١٠١/٣ بيروت .
(٢) جامع البيان ١٠٢/٣

والطاعة » على طلب الغفران من تقديم الوسيلة على المسؤول حيث يكون ذلك أقرب الى الاجابة والقبول (١) .

« لا يكلف الله نفسا الا وسعها » أى لا يكلف الله إنسانا من الأعمال الا ما تتسع له طاقته ويكون دونها ، وذلك بمقتضى عدله سبحانه ورحمته كقوله تعالى : «**يريد الله بكم اليسر ولا يريد لكم العسر** » (٢) . لأنه كان فى امكان الانسان وطاقته أن يصلى اكثر من الخمس ويصوم أكثر من الشهر ويحج أكثر من حجة (٣) .

« لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت » أى ينفعها ما كسبت من خير ويضرها ما اكتسبت من شر ، لا يؤاخذ بذنبها غيرها ، ولا يثاب غيرها بطاعتها وفى العبارة مقابلة بين : لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، لأن لها ضد عليها وكسبت ضد اكتسبت ، وتخصيص الخير بالكسب والشر بالاكتساب لسر دقيق ، لأن فى الاكتساب معاناة وعملا قلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة اليه وأمارة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال(٤) .

وهو نفس تعليل ابن عطية من : أن الجنات تكتسب دون تكلف حيث يمضى صاحبها على صراط الله المستقيم ، بينما تكتسب السيئات بتكلف (٥) . وعبر مع الحسنات « بلها » حيث انها مما يفرح المرء

---

(١) روح المعانى ٦٩/٣ .
(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٣) الكشاف : ٤٠٨/١ .
(٤) الكشاف : ١ : ٤٠٨ .
(٥) القرطبى : ٤٣١/٣ .

بكسبه ويسر بها ، فتضاف الى ملكه ، وفى السيئات « بعليها » حيث انها اثقال واوزار ، كما يقول القائل : لى مال وعلى دين (١) .

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » اى اعف عنا اثم ما يقع منا على هذين الوجهين أو احدهما كقوله عليه السلام : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه (٢) .

« ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا » الاصر : الأمر الغليظ الصعب وقيل : الضيق والذنب والثقل .

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » أى لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا ، والنهى فيما سبق ليس على حقيقته وانما يراد بـه الدعاء لأنه من الأدنى الى الأعلى وذلك من الأدعيـة التى يعلمنا الله ذكرها ودعاءه بها ، وما يأتى من الأمر أيضا فانه للدعاء فى قوله :

« واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ...... الكافرون »

والفرق بين العفو والمغفرة والرحمة ، ان العفو ترك الذنـوب بلا عتاب ، والمغفرة : سترها ، والرحمة : المعاملة بلطف منه تعالى وشفقة (٣) وقال الراغب : العفو ازالـة الذنب يترك عقوبته ، والغفران : ستر الذنب واظهار الاحسان بدله فكأنه جمع بين تغطية ذنبه وكشـف الاحسان الذى غطى به ، والرحمة : افاضة الاحسان اليه ، فالثانى أبلغ من الأول والثالث ابلغ من الثانى (٤) .

فنرى أن « غفرانك واغفر » وردا فى الآيتين الكريمتين بمعنى

---

(١) السـابق .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤٣٣/٣ .
(٣) السـابق .
(٤) البحر المحيط : ٣٧٠/٢ .

الدعاء بالستر من الناس الى الله تعالى ضمن دعاء طويل يعلمنا الله أن ندعـوه بـه ٠ وقد ورد فى هذه الخاتمة التى ختمت بها سورة البقرة والتى تضمنت ذلك الدعاء من الأحاديث ما يدل على عظيم فضلها ، وما يعود على قارئها من المكاسب الجليلة فقد روى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى قال : قال رسول الله (ﷺ) :

« من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة « **كفتاه** » قيل : من قيـام الليل ، وقيل : كفتاه من شر الشيطان فلا يكون لـه عليه سلطان ، وروى أن النبى (ﷺ) قال أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يؤتهن نبى قبلى [١] ٠

٢ ـ استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يوم القيامة :

معلوم أن يوم القيامة يوم حساب لا عمل فيه ، لأن الاسـتغفار يكون فى دار الدنيا استعدادا ليوم القيامة ، ويحكى القرآن أن النبى (ﷺ) والمؤمنين يستغفرون يوم القيامة ، أى يطلبون من الله زيادة الأمن والاطمئنان لهم ، ودلالة على أن المؤمن فى خوف دائم واشفاق مستمر ومناجاه غير منقطعة لله حتى فى دار الجزاء ٠

« يأيها الذين امنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكـم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار يوم لا يخزى الله النبى والذين امنـوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبايمانهم يقولون ربنا أتمم لنـا نورنا واغفر لنـا إنـك على كل شىء قدير » ٠

سورة التحريم : ٨

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣/٤٣٤ ٠

التحليـل اللغـوى والبيـانى :

« يأيها الذين أمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا » ذكر فى المراد منهـا أقوال كثيرة منها : التوبة التى لا عودة الى ارتكاب الذنوب بعدها كما لايعود اللبن الى الضرع ، ومنها : أن يبغض الذنب الذى كان يحبه ويستغفر الله منه كلما ذكره ، وقيل : هى الندم بالقلب والاسـتغفار باللسـان ، والاقلاع عن الذنب ، والاطمئنان على عدم العودة اليه . وعن على رضى الله عنه أنه سمع أعرابيا يقول : اللهم انى استغفرك وأتوب اليك ، فقال : يا هذا ان سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين ، قال : وما التوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء : على الماضى من الذنوب الندامة ، وللفرائض الاعادة ، ورد المظالم ، واستحلال الخصـوم ، وعدم العودة الى الذنب ، وأن تذيب نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى المعصية وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصى . ولفظ النصوح قيل من : عسل ناصح اذا خلص من الشمع . وقيل : من نصاحة الثوب . أى توبة تسد خروقك فى دينك وتصلح اعوجاجك ، وقيل : توبة تنصح الناس أى تدعوهم الى الاقتداء بها لظهور أثرها فى صاحبها .

ووصف التوبة بنصوح على الاسناد المجازى اذان المراد صاحـب التوبة (١) عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم « فى التعبير » بعسـى « تفسيران » : أحدهما : أنه على طريقة الرؤسـاء فى عدم القطع بالمطلوب (٢) ثانيهما : تعليم العباد أن يكون موقفهم دائما منه ومن دعائه تعالى بين الخوف والرجاء وان كانوا غاية فى العبادة والطاعة .

« يوم لا يخزى الله النبى والذين امنوا معـه » تفيـد العبـارة

---

(١) الكشاف ٤/١٢٩ وما بعدها .
(٢) وأن ذلك تفضل منه سبحانه ، والتوبة غير موجبة له .

بيان عظمة يوم القيامة وترغب المؤمنين فى الاستعداد له وتطمئنهم بستر الله لهم ، وفيها تعريض بمن لم يؤمن به ولم يستعد له من أهل الكفر والفسوق .

« نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » أى على الصراط

« يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا » قال ابن عباس يقولون ذلك خوفا وإشفاقا عند اطفاء نور المنافقين ، وقيل : انهم يقصدون بدعائهم ذلك التقرب الى الله فى هذا اليوم العظيم وابتهاجا بنجاتهم من الهول والشدة التى يتجرعها المشركون والمنافقون ، وقيل : يقول ذلك : أدناهم منزلة حين يكون النور على قدر الأعمال فيسألون اتمامه تفضلا ، والأرجح الرأى الذى يذهب الى أن دعاءهم باتمام النور وطلب المغفرة فى الدار الآخرة التى لا تقرب فيها ولا استغفار على نحو قوله تعالى لنبيه : « واستغفر لذنبك »[1] وهو مغفور له ، وأن خوفهم من الله يلازمهم فى كل وقت ، ودعاءهم له واستغفارهم له لا ينقطع حمدا وشكرا وطلبا لاستدامة نعمه عليهم .

٣ ـ الاستغفار عند نزول البلاء وقبل دعاء الله بتحقيق الخير :

« وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكفرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين »

(آل عمران ١٤٥ : ١٤٧)

الاستغفار توبة ودعاء الى الله تعالى ، ولا يكون عقب الوقوع فقط فى الذنوب بل ينبغى أن يكون فى جميع الأوقات تكفيرا للأخطاء

---

(١) سورة محمد : ١٩

المباشرة وغير المباشرة التى تقع من العبد ، وأيضا عند نزول البـــلاء وحلول المصائب رضا بأمر الله واستسلاما لقدره ، وعند الشروع فى فعل الخير رجاء فى قبول الله تعالى ، وذلك ما تنبهنا اليه الآيات المذكورة

ســـبب النـــزول :

قال الزهرى : صاح الشيطان يوم أحد : قتـــل محمد ، فانهزم جماعة من المسلمين ، قال كعب بن مالك : فكنت أول من عرف رسول الله (ﷺ) ، رأيت عينيه من تحت المغفر تزهران ، فناديت بأعلى صوتى : هذا رسول الله (ﷺ) فأوما الى أن اسكت ، فأنزل الله عز وجل : « وكاين من نبى ... والآية تشجع المؤمنين ، وتحثهم على ضرورة التثبت والتماسك ونبذ الضعف والخوف فى هذه المواقف ، مواقف الجهاد فى سبيل الله مهما وقع من احداث أو نزل بهم من مصائب مذكرة لهم بمواقف مماثلة وقعت لكثير من الانبيـاء الســـابقين فما كان من الاتباع الا الصبر والثبات والتوجه الى الله بطلب المغفرة والنصر .

التحليل اللغوى والبيانى :

« وكاين » بمعنى كم ، قال الخليل وسيبويه : هى أى دخلت عليها كاف التشبيه وبنيت معها فصار فى الكلام معنى كم » ، وصورت فى المصحف نونا لأنها كلمـــة نقلت عن أصـــلها فغير لفظهـــا لتغير معناها[١] « ربيون» جماعات كثيرة ، واحدهـم : ربى بضم الـــراء والكسرها ، منسوب الى الربة بضم الراء وكسرها ومعناها : الجماعة .

« فما وهنوا ..... وما استكنوا »

أى لم يضعفوا ولم يستسلموا للعدو لما نزل بهم من قتـل وجـرح وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الارجـــاف بقتـل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٨/٤ .

الرسول (ﷺ) ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم حين أرادوا ان يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن ابى فى طلب الامان من أبى سفيان(١) .

« والله يحب الصابرين » على مقاسـاة الشـدائد فى سـبيله فينصـرهم ويعظـم قدرهـم ، والمـراد بالصـابرين ، أمـا الربيون ، والاظهار فى موضع الاضمار للتصريح بالثناء عليهم بالصبر الذى هو ملاك الأمر مع الاشعار بعلة الحكم ، واماما يعمهم وغيرهم ، وهم دلخلون فى ذلك دخولا أوليا والجملة على التقديرين تذييل لمـا قبلهـا .

(روح المعانى : ٨٤)

« وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا ..... » الآية : وذنوبنا اى : صغائرها ، الأسراف : الافراط فى الشىء ومجاوزة الحـد ، ويـراد به : الكبائر ، وذلك حكاية من الله تعالى لما دعوا به ، وفى الوقت نفسه فإنه يعلـم عباده المسلمين الأمور التى ينبغى أن يكون دعاؤهم بها ففى صحيح مسـلم عن أبى موسى الأشعرى أنه ﷺ كان يدعوه ، بهذا الدعاء « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى واسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى » وذكر الحديث ، فعلى الانسان أن يستعمل ما فى كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء(٢) .

وتقديم الدعـاء بطلب المغفرة على طلب النصر وهم فى حـال طيبة مع الله تعالى خير دليل على أن الدعاء والاسـتغفار والتوبـة لا يقتصر على حالات الوقوع فى الذنوب بل يستغفر الانسان ربه وهو يطلب منه تحقيق خير له ليكون ذلك أدعى لقبول الله له بعد اقباله على الله ذليلا منكسرا متواضعا معترفا بالتقصير وفى ذلك يقول الزمخشرى :

---

(١) الكشاف : ٤٦٩/١ .
(٢) القرطبى : ٢٣١

« وهذا القول وهو اضافة الذنوب والاسراف الى أنفسهم مع كونهم ربانيين هضما لها واستقصارا ، والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون طلبهم الى ربهم عن ذكاء وطهارة وخضوع أقرب الى الاستجابة »(١) وخصوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح حيث الاعتماد عليها ، وذلك من اطلاق الجزء وارادة الكل على سبيل المجاز المرسل لعلاقة الجزئية (٢) .

« فآتاهم الله ثواب الدنيا » من النصر والغنيمة وطيب الذكر « وحسن ثواب الآخرة » أى الجنة ، وتخصيص ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو الذى يعتد به(٣) .

٤ ـ المسارعة لنيل المغفرة :

« سابقوا الى مغفرة من ربكم ..... والله ذو الفضل العظيم »
(الحديد : ٢١)

يحثنا الله تعالى فى الآيةالتالية على المسارعة الى فعل الخير وعمل الصالحات والتوبة اليه قبل ان يفاجئنا الموت ، أو قبل أن يصرفنا الشيطان عما نوينا عمله من فعل الخير .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« سابقوا الى مغفرة من ربكم » أى سارعوا الى تحصيل أسباب مغفرة الله مسارعة المتسابقين ، ويراد بتلك الأسباب : الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها ، فعن على رضى الله عنه : كن أول من يدخل

---

(١) الكشاف : ٤٦٩/١
(٢) القرطبى : ٢٣١/٤
(٣) الكشاف : ٤٦٩/١

المسجد وآخر من يخرج منه ، وعن عبد الله : كونوا فى أول صـفوف القتال ، وعن أنس : اشهدوا تكبيرة الاحـرام مع الامام ، وهذه أمثلة للمسارعة .

وقيل :سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالمـوت عن الأعمال الموصلة لما ذكر ، وقيل : سابقوا ابليس قبـل أن ـ يصـدكم بغروره وخداعه عن ذلك .

وقد احتج بعض العلماء بأن الأمر بالمسارعة فى الآية ينبغـى تحقيقـه وتنفيذه على الفور ، وأن الاسـراع واجـب ، والتراخى محظور(١) .

وتقديم « المغفرة » على « الجنة » من تقديم التخلية على التحلية أما قوله تعالى : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » ففى تفسير العرض وجوه :

أحدها : أن السموات السبع والأرضين السبع لو جعلت صفائح ولصق بعضها ببعض لكانت الجنة فى عرضها .

وقيل : إنه تعالى شـبه عرض الجنة بعرض السـموات السبع والأرضين السبع ، ولا شك أن طو لها أزيد من عرضها ، فذكر العرض اشعار بأن طولها أضعاف ذلك .

وقيل : وهو اختيار ابن‌عباس ان‌الجنان أربع قال تعالى :

« ولمن خاف مقـام ربه جنتـان »(٢) وقال : « ومن دونهما جنتان »(٣) فالمراد تشبيه واحدة من تلك الجنان فى العرض بالسموات السبع والارضين السبع .

---

(١) التفسير الكبير ٢٣٤/٢٩
(٢) سورة الرحمن : ٤٦
(٣) سورة الرحمن : ٦٢

وقيل : وهو الارجح : أن ذلك تمثيل للعباد بما يعقلونه وما يقع فى نفوسهم وأفكارهم ، وأكثر ما يقع فى نفوسهم مقدار السموات والأرض [١] ٠

(أعدت للذين أمنوا بالله ورسله) أى هيئت لهم ٠

وقد ذكر الله فى هذه الآية : « سابقوا » وفى آل عمران : « وسارعوا » وذكر « السماء » هنا « والسموات » هناك «وكعوض» هنا ، « وعرضها » هناك بدون أداة تشبيه اذ يراد بالمتقين هناك : السابقون المقربون وبالذين أمنوا هنا من دونهم حالا [٢] ٠

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » أى ذلك الذى وعد به سبحانه من المغفرة والجنة عطاؤه الذى لا يجب عليه يعطيه من يشاء من عباده ٠

« والله ذو الفضل العظيم » فلا يبعد منه عز وجل التفضل بذلك على من يشاء وان عظم قدره ، والجملة تذليل لاثبات ما ذيل بها ٠

٥ ـ مكافاة الله للتائبين بالمغفرة والرحمة اذا صدقوا فى توبتهم واستمروا على الايمان بالله وما يقتضيه من فعل الصالحات :

من شروط التوبة الصادقة : المداومة على فعل الصالحات واجتناب السيئات وذلك من لوازم الايمان بالله ورسوله وذلك ما نراه فى الآية التالية :

« والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وامنوا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » ٠

الاعراف : ١٥٣

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى ٢٣٤/٢٩ ٠
(٢) روح المعانى ١٨٥/٨ ٠

« والذين عملوا السيئات » أى سيئة كانت بدون تحديد لسيئات معينـــة ٠

« ثم تابوا من بعدها وآمنوا » أى ندموا وعقدوا العزم على عدم العودة اليهـا واجتهدوا فى تنفيـــذ مقتضيات الايمان من الأعمـــال الصالحة ٠

وذكر الايمان بعد التوبة من ذكر الخاص بعد العام للاعتناء بـه لأن التوبة عن الكفر تشمل الايمان ٠ وقيل : المراد بالايمـان هنــا التصديق بأن الله تعـالى يغفر للتائب أى ثـم تابوا وصدقوا بأن الله يغفر لمـن تاب (١) ٠

ويعلق الفخر الرازى على ذلك بقوله : « هذا يفيـد أن من عمل السيئات فلابـد وأن يتوب عنها أولا ، وذلك بأن يتركها أولا ويرجع عنها ، ثـم يؤمن بعد ذلك ويصدق بأنه لا اله غيره (٢) ٠

« ان ربك من بعدها » أى من بعد التوبة المقرونة بما لا تقبل بدونه وهـو الايمان ٠

« لغفور رحيم » أى لساتر لذنوبهم وان عظمت مبالغ فى افاضـة فنون الرحمة عليهم ، والموصول وما بعده مبتدا ، وجملة : « ان ربـك » ٠٠خبر والعائد محذوف أى : لغفور لهم رحيم بهم – وفى الآية اعلام وبشارة للمذنبين بـأن ذنوبهم وان كثرت فان عفو الله وكرمـه أعظم وأجـل (٣) ٠

---

(١) روح المعانى : ٧٠/٩
(٢) التفسير الكبير : ١٣/١٥ ٠
(٣) المصدر السابق ٠

٦ – رجاء رحمة الله قبل مغفرته مسارعة وأملا فى قبوله التوبة :

معلوم أن طلب المغفرة من الله يأتى قبل طلب رحمته ومعظم الآيات التى اشتملت على المغفرة والرحمة طلبا للعباد من الله أو مكافاة من الله لعبـاده تتقدم فيها المغفرة على الرحمة حيث يكون ستر الله للذنب أولا ثـم الحصول على رحمته بعد ذلك أى أن تقديم المغفرة على الرحمة من تقديم التخلية على التحلية ، وعندما تاتى الرحمة قبـل المغفرة على لسان العباد فذلك للمسارعة والتشوق الى الحصول على قبول التوبة من الله كما فى الآية التالية :

« ولما سقط فى أيديهم ورأوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنـا ويغفر لنـا ‧‧‧‧‧‧ من الخاسرين » .

الأعراف : ١٤٩

« ولماذا سقط فى أيديهم » أى انهم ندموا بعد عودة موسى عليه السلام من الميقات ، والعبارة كناية عن شـدة الندم وبلوغه غايته ، لأن النـادم اذا اشتد ندمه عصر يده غما فتصير يده مسقوطا فيهـا واصله : سقط فـوه فى يده أى : وقع ، ثـم حذف الفاعل ، وبنى الفعل للمفعول بـه فصار : سقط فى يـده (١) .

« ورأوا أنهم قد ضلوا » أى تبينوا ضلالهم باتخاذ العجل وعبادته تبينا كأنهم قـد أبصروه بعيونهم .

« قالوا لئن لم يرحمنا ربنا » بانزال التوبة المكفرة « ويغفر لنا » بالتجـاوز عن خطيئتنا .

---

(١) روح المعانى ٦٤/٩ ، ٦٥ والقرطبى : ٢٨٥/٧ .

وتقديم « الرحمة » على « المغفرة » مع أن التخلية تقدم على التحلية فتقدم الـ « المغفرة » على « الرحمة » قيل : اما للمسارعة الى ما هـو المقصود الأصلى ، واما لأن المراد بالرحمة مطلق الخـير بهم ، وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم .

واللام فى « لئن » موطئة للقسم أى : والله لئن .. الخ وفـى قوله : « لنكونن من الخاسرين » لجواب القسم كما هو المشهور (١) .

---

(١) المصدر السابق .

الباب الثاني

من أســرار الاســتغفار
فــي
القـــرآن الكريـــــم

« واستغفروا ربكم ثم توبوا اليـه ان ربى رحيم ودود »
(سورة هود : ١٠)

الفصل الأول

حقيقـــة الاســـتغفار

١ ـ الاستغفار المقترن بالتــوبة :

ذكرنا أن الاستغفار المطلوب والذى يحقق الغاية منـه فى نيـل مغفرة الله هو ما يكون مقترنا بالتوبة الصادقة وبالإقلاع عن الذنـــب والندم على الوقوع فيه عند تذكره ، وأن الاستغار ان ذكـــر مجردا عن الاقتران بالتوبة فلا يـراد به مجرد الاستغفار باللسان وانما يراد بـه الاستغفار باللسان والقلب اعتمادا على ما جـاء فى الآيات التالية من سورة آل عمـران التى تضمنت فيما ورد فيها عن الاستغفار امورا هـــى :

١ ـ الاسراع بالتوبة وفعل ما بـه تنال المغفرة من الأعمـــال الصالحة وعدم التأخير فى ذلك حيث ينزل الموت بغته .

٢ ـ ان الاستغفار من الذنوب ينبغى أن يتم عقب الوقوع فيهـا بلا تسويف ولا تاجيل .

٣ ـ أن يقترن الاستغفار بالاصرار على اجتناب الذنوب والبعـد عنهـــا .

٤ ـ ان يتيقن المستغفر من استجابة الله له ، وأنه وحـده صاحب المغفــرة .

والآيـــات هى قولــه تعـالى :

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض اعـدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ

والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين »

آل عمران : ١٣٣ - ١٣٦

التحليل اللغوى والبياتى :

« وسارعوا » ... والله يحب المحسنين « الآية : ١٣٣ وسبب نزولها ما أخرجه عبد بن حميد عن عطاء بن أبى رباح أن المسلمين قالوا : يا رسول الله : بنو اسرائيل كانوا اكرم على الله تعالى منا كانوا اذا أذنب احدهم ذنبا أصبحت كفارة ذنبه فى عتبة داره : اجدع أنفك ، اجدع أذنك افعل كذا وكذا فسكت (ﷺ) فنزلت الآية الكريمة والتى بعدها فقال (ﷺ) ألا أخبركم بخير من ذلكم ثم تلاها عليهم (١) .

« وسارعوا ..» المسارعة : المبادرة ، وفى العبارة ايجاز بالحذف أى سارعوا الى ما يوجب المغفرة وهى الطاعة . وتقديم المغفرة على الجنة من تقديم التخلية على التحلية وقيل : لأنها كالسبب فى دخول الجنة (٢) . ووصف المغفرة بكونها من الرب دون الجنة تعظيما لأمرها وتنويها بشأنها(٢) والتنوين فى المغفرة وكذا فى الجنة للتعظيم ويؤيده وصف كل منهما بما يوصف به (٢) .

« وجنة عرضها السموات والأرض » قيل : أن ذلك على سبيل الحقيقة وينسب لابن عباس أنه قال : تقرن السموات والأرض بعضها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٣/٤ .
(٢) السابق .

الى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها الا الله (١) .

وقيل وهو ما نرجحه ان المقصود المبالغة فى سعة الجنة وأنه لا منتهى لسعتها فشبه عرضها وهو أقصر من الطول بعرض السماوات والأرض ، وزادت المبالغة بحذف اداة التشبيه ووجه الشبه على سبيل التشبيه المحذوف الوجه والأداة أو البليغ ، والعرب كثيرا ما تصف الشىء بالعرض اذا أرادوا وصفه بالسعة ومنه قولهم : أعرض فى المكارم اذا توسع فيها ، والمراد من السماوات والأرض . السموات السبع والأرضين (٢) .

« أعدت للمتقين » خصوا بالذكر تشريفا لهم واعلاما بأنهم الأصل فى ذلك وغيرهم تبع لهم (٣) .

« الذين ينفقون .. الآية » ذلك وما بعده فى محل جر صفات للمتقين ومفعول « ينفقون » محذوف للدلالة على أن انفاقهم ليس مقتصرا على شىء معين ، وانما يتناول كل ما يصلح للانفاق (٤) .

« فى السراء والضراء » أى فى اليسر والعسر أو فى الفرح والحزن فلا ينقطعون عن الانفاق على أية حال كانوا عليها من الفرح والحزن كثر الانفاق أو قل على قدر طاقتهم .

وقدم الانفاق على غيره من الصفات ، لأنه أشدها فى مجاهدة النفس ووقايتها من الشح والبخل « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم

---

(١) روح المعانى : ٥٦/٤ .
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق
(٤) روح المعانى : ٥٦/٤ .

المفلحون (١) ولكونه فى ذلك الوقت وفى كل وقت من أعظم الأعمال للحاجة اليــه فى مجاهدة الأعداد ومواساة فقراء المسلمين(٢) .

« والكاظمين الغيظ » أى الذين يكتمون الغيظ ويتمكنون من قهــر أنفسهم فى حالات الغضب مأخوذ من : كظم الاناء اذا ملاه وغطــاه وشــدفاه ، وكظم البعير جرته (٣) : اذا ردها فى جوفه ، فكظم فلان غيظه : أى لم يظهره مع قدرته على ايقاعه بعدوه ، ومنه : رجل كظيم ومكظوم اذا كان ممتلئا غمــا وحزنا ، وفى التنزيل : « وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » (٤) « ظل وجهه مسودا وهو كظيم » (٥) ، اذ نادى وهو مكظوم » (٦) ، والغيظ : أصل الغضب وكثيرا ما يتلازمان ، لكن فرق بينهما بأن الغيظ لا يظهر على الجوارح مع فعل مــا ولابد ، ولهذا جاء اسناد الغضب الى الله تعالى اذ هو عبــارة عن أفعالــه فى المغضوب عليهم (٧) .

وعن النبى (ﷺ) : من كظم غيظا وهو يقدر على انقاذه مــلأ الله قلبــه أمنــا وايمانا .

« والعافين عن الناس » أى الذين يتجاوزون عــن عقوبــة من ظلمهم وأساء اليهم حيث يكون ذلك لاختلال فى الدين قال (ﷺ) : « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب « وقال عليه الصلاة والسلام : » ما من جرعة يتجرعها العبــد خير لــه

---

(١) سورة الحشــر : ٩ .
(٢) الكشــــاف : ٤٦٤/١ .
(٣) ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه .
(٤) يوســف : ٨٤ .
(٥) سورة النحــــل : ٥٨ .
(٦) سورة القلم : ٤٨ .
(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٦/٤ .

واعظم اجـرا من جرعة غيظ فى الله » ، روى عن ميمون بن مهران ان جارته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه ، فأراد ميمون أن يضربها فقالت الجارية : يا مولاى استعمل قول الله : « والكاظمين الغيظ » قال لهـا قد فعلت فقالت : اعمل بما بعده « والعافين عن الناس » فقال : قـد عفوت عنـك ، فقالت الجارية : « والله يحب المحسنين « قال ميمون : قد أحسنت اليك ، فانت حرة لوجه الله تعالى [1] ٠

« والله يحب المحسنين » أى يثيبهم على احسانهم ، قيل : للاحسان : هو ما يحدث فى الوقت المناسب وعند القدرة على ذلك ، قال الشاعر :

بادر بخير اذا ما كنت مقتدرا ∴ فليس فى كل وقت انـــت مقتدر[2] « والذين اذا فعلوا فاحشة ٠٠٠٠ » الآية ٠

ذكرت عدة روايات فى سبب نزول الآية منها ما رواه الكلبى : ان رجلين انصاريا وثقفيا آخى رسول الله (ﷺ) بينهما فكانا لا يفترقان فخرج رسول الله (ﷺ) فى بعض غزواته وخـرج معه الثقفى وخلف الانصارى فى أهـله وحاجته فكان يتعاهد أهل الثقفى فاقبـــل ذات يوم فابصر امرأة صاحبه فوقعت فى نفسه فدخل ولم يسـتأذن حتـى انتهى اليها فذهب ليقبلها فوضعت كفها على وجهها فقبل ظاهر كفها ثـم ندم واستحيا فادبر راجعا فقالت : سبحان الله ، خنت أمانتك وعصيت ربك ولم تصل الى حاجتك قال : ونـدم على صنيعه فخـرج يسبح فى الجبال ويتوب الى الله من ذنبه حتى عـاد الثقفى فاخبرته زوجته بما فعل صاحبه فخرج يبحث عنه حتى اهتدى اليه فوجـده ساجدا وهو يقول : رب ذنبى قد خنت اخى ، فقال له : قم يا فـلان

---

(١) الجامع لاحكام القرآن ٢٠٨/٤ ٠

(٢) السابق ٢٠٨/٤ ٠

فانطلق الى رسول الله (ﷺ) فاسأله عن ذنبك لعل الله أن يجعل لك مخرجا وتوبة فاقبل معه حتى رجع الى المدينة وكان ذات يوم عند صلاة العصر نزل جبريل عليه السلام بتوبته فتلا قول الله : « والذين اذا فعلوا فاحشة ... الى قوله سبحانه : « ونعم أجـر العاملين » فقـال عمر رضى الله عنه : يا رسـول الله : الهذا الرجل خاصة أم للناس عامة ؟ قال (ﷺ) : بل هـى للناس عامة .

وأخرج الترمذى عن عطاف بن خالد انه قال : بلغنى انها لمـا نزلت صاح أبليس بجنوده وحثـا على رأسه التراب ودعا بالويل والثبور حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر فقالوا : مالك يا سيدنا قـال : آية نزلت فى كتاب الله لا يضر بعدها احدا من بنى آدم ذنب قالوا : ومـا هـى ؟ فأخبرهم قالوا ، نفتح لهم باب الاهواء فلا يتوبون ولا يستغفرون ولا يرون الا انهم على الحق فرضـى منهـم بذلـك (١) .
والفاحشة : الكبائر وظلم النفس : الصغائر وقيل : الفاحشة : كل مـا يشتد قبحه من المعاصى والذنوب وتقال لكل خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال وكثيرا ما ترد بمعنى الزنا ، وأصل الفحش : مجاوزة الحد فى السوء .

« ذكروا الله » أى تذكروا حقه العظيم ووعيده ، أو ذكروا العرض عليه ، أو سؤاله عن الذنب يوم القيامة (٢) .

« فاستغفروا لذنوبهم » أى طلبوا منه تعالى المغفرة لذنوبهـم كيفما كانت وليس المـراد مجـرد طلب المغفرة ، بل مـع التوبة الصادقة بالنـدم على الذنب والتصميم على عدم العودة اليه ، لأن طلب المغفرة

---

(١) روح المعانى : ٥٩/٤
(٢) المصدر السابق .

مع الاصرار على الذنب كالاستهزاء بالله ، ولذلك قالت رابعة العدوية : استغفارنا هذا يحتاج الى استغفار »(١) .

« ومن يغفر الذنوب الا الله » اعتراض بين المعطوفين فيه وصف لذات الله بسعة الرحمة وقــرب المغفرة ، وان التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأنه لا مفزع للمذنبين الا فضـله وكرمه . ويؤكـد هذه المعـانى ، تقديم المفعول وتأخير الفاعل ، والقصر ، والتعبير بالطلب « الاستفهام » بدلا من الاخبار(٢) .

« ولم يصروا على ما فعلوا » أى لم يقيموا على قبيح فعلهـم غير مستغفرين ، وعنه (ﷺ) : « ما أصر من استغفر وان عـاد فى اليوم سبعين مرة « وروى : » لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صـغيرة مع الأصرار .

« وهم يعلمون » حال من فعل الاصرار والنفى منصب عليهمـا معـا ، أى انهم ليسوا ممن يصرون على الذنوب وعم عالمون بقبحها .

« أولئك جزاؤهم .... الانهار . « قيل ان الاشارة للذكورين أخيرا وقيل : انها لجميع المتقين وصفاتهم السابقة وذلك هو الراجح ، والأشارة باسم الأشارة البعيد للاشعار بعلو منزلتهم فى الفضل .

« ونعم أجر العاملين » المخصوص بالمدح محذوف أى : ونعـم أجـر العاملين الجنة أو ذلك ، أى ما ذكر من المغفرة والجنات .

---

(١) روح المعانى : ٦٠/٤
(٢) الكشاف : ٤٦٤/١

الفصل الثاني

استغفار الرسل عليهم السلام ودعوتهم الناس الى الاستغفار

اولا : استغفار الرسـل عليهم السلام

بتتبع الآيات التى تتحدث عن استغفار الرسل عليهم الســلام (استبان لنــا أن بعضها يتضمن وقوع الاستغفار من الرسل أنفســهم لمواقف لهم عاتبهم الله عليها مراعاة لمقامهم الجليل ومنزلتهم العالية عنده وبعضها يتضمن دعــوة الرسل أقوامهم الى استغفاره تعالى فمن الآيات التى اشتملت على وقوع الاستغفار منهم عليهم السلام ٠

١ – استغفار سيدنا موسى عليه السلام لقتله القبطى بدون عمد فى قوله تعالى : « **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته عـلى الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ٠ قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم ٠ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ٠**

سورة القصص : ١٥ – ١٧

٢ – استغفار سيدنا داود عليه السلام فى قوله تعالى : « **وهــل أتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب ٠ اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمــان بغى بعضنا على بعض فاحـكم بيننا بالحـق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحد فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب ٠ قال لقد ظلمـك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضــهم على بعض الا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود انمــا فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ٠ فغفرنا لــه ذلك وان له عنـدنا لزلفى وحسن مآب ٠**

سورة ص : ٢١ – ٢٥

٣ – استغفار سيدنا محمد ﷺ ، فقد أمره الله بالاستغفار لنفسه فى قوله تعالى : « **انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما • واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما • ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما • يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون مالايرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا • ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا • ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما • ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما • ومن ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا • ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** » •

سورة النساء : ١٠٥ – ١١٣

وأمره أيضا بالاستغفار لنفسه فى قوله تعالى : « **فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار** » •

سورة غافر : ٥٥

وايضا فى قوله تعالى : « **اذا جاء نصر الله والفتح ورايت الناس يدخلو فى دين الله أفواجا • فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا** »

وأمره بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات فى قوله تعالى : « **فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم** » •

سورة محمد : ١٩

وأمره بالاستغفار لمن يبايعنه من المؤمنات فى قوله تعالى :
« يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم » .

سورة الممتحنة : ١٢

وأمره بالاستغفار لأصحابه فى قوله تعالى : **« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .**

سورة آل عمران : ١٥٩ - ١٦٠

وأمره بالاستغفار هو والصحابة والمسلمون فى قوله تعالى :
ان ربك يعلم انك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى واخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله واخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما يتسر منه واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا واعظم اجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » .

سورة المزمل : ٢٠

ووعده تعالى بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر فى قوله تعالى :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك

وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما · وينصرك الله نصـرا عزيزا » ·

سورة الفتح : ١ ـ ٣

١ ـ استغفار سيدنا موسى عليه السلام من قتل القبطى :

لمـا من الله على موسى عليه السلام بالحكمة والعلم بـدا يضيق بكل ما يراه من فرعون وما يصنعه وينكره ظاهرا وباطنـا ، وعـرف ذلك عنـه فاخذ الناس يحذرونه ويحذرهم ، وعندما دخل مصر فـى غفـلة من أهلها استعان به رجل اسرائيلى طالبا نجدته من رجل قبطى من أعـوان فرعون فضرب سيدنا موسى عليه السلام القبطـى بيـده يقصـد دفعه عن الاسرائيلى لكن الضربة كانت سببا لنفاذ أمـر الله فى القبطى بالقتل ، عند ذلك حـزن موسى عليه السلام على هذه النهاية المؤلمة التى لم يكن يقصد اليها وأخذ يستغفر الله معترفا بذنبه وبظلمه نفسه عاقدا العزم على أنه لا يكون فى يوم ما عونا للمجرمين والظالمين ·

« ودخل المدينة على حين غفـلة ·· ظهيرا للمجرمين » ·

سورة : القصص : ١٥ ـ ١٧

التحليـل اللغـوى والبيانى :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها » أى دخل مصر فى وقت لا يتوقع دخولها فيه ، أو لا يتوقع الناس دخوله فيه ، وذلك فى وقت القائلة ، أو بين العشاء والعتمة : قيل لمـا عرف موسى عليه السلام ما هو عليه من الحـق فى دينه ، عـاب ما عليه قوم فرعون ، وعرف ذلك عنه فأخافوه فخافهم فكان لا يدخل مدينة فرعون الا خائفا مستخفيا · وقيل : كان ذلك فى يوم عيد وهم مشغولون بلهوهـم ، وقيل : غير ذلك ·

« فوجد فيها رجلين يقتتلان » قيل : كانا يقتتلان فى الدين ، اذ كان احدهما اسرائيليا مؤمنا ، والآخر قبطى وقيل : كانا يقتتلان فى أمـر من أمور الدنيا اذ كلف القبطى الاسرائيلى بحمل الحطب على ظهره الى مطبخ فرعـون ٠

« هذا من شيعته » أى ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل وقيل : هـو السامرى ٠

« وهذا من عدوه » أى من الذين يخالفونه فى دينه وهم القبط قيل : واسمه فاتـون ٠

« فوكزه موسى فقضى عليه » أى ضربه بجمع كفه (١) فقضـى عليه بالموت ولم يكن يتعمد قتله ، وانما وافقت وكزته الأجل ٠

« قال هذا من عمل الشيطان » أى من إغـواء الشيطان وتزيينه ٠

« أنه عدو مضـل مبين » أى ظاهر العداوة والاضلال ٠

« قال رب انى ظلمت نفسى ٠٠٠٠ فغفر له » أى انـى بتسرعى فى ضرب القبطى وعدم ثباتى عند الغضب كنت ظالما لنفسى ظلمـا يستوجب التوبة والاستغفار ٠

وقد عـد موسى عليه السلام ما حدث منه من ضرب القبطى بمـا كان سببا فى موته من عمل الشيطان ، وانه قد ظلم نفسه ، وأخذ فى التوبة والاستغفار من ذنبه من أجل أنه قد قتل من لم يؤذن له فـى قتله ، ولأن الانبياء يشفقون ممـا لا يشفق منـه غيرهم ، وقيل : كان هذا قبـل النبوة ، وقيل : كان اذ ذاك ابن اثنتى عشرة سنة وكان قتله خطأ فان الوكزة فى الغالب لا تقتل (٢) ٠

---

(١) الأصابع مضمومة ٠

(٢) البحر المحيط ١٠٩/٧ وما بعدها ٠

ولا تعارض بين ما وقع من سيدنا موسى عليه السلام والقــول بعصمة الأنبياء عن الكبائر بعد النبوة وقبلها ، لأن اصل الوكزة مــن الصغائر ، وما وقع من القتل كان خطأ ، والخطأ وأن كان لا يخلو عن الاثم ولذا شرعت فيه الكفارة الا أنه صغيرة أيضا ، بل قيل : انــه لا تعــارض حتى مع القول بعصمتهم من الكبائر والصغائر مطلقا لجواز وأن يكون عليه السلام قد رأى فى الوكز دفع ظالم عن مظلوم ففعله غير قاصــد به القتل .

« قال رب بما أنعمت على ... » البــاء للقسم أى أقسم بمــا أنعمت به على من حفظك لى من شر فرعون أو من المغفرة والجواب محــذوف : أى لامتنعن عن مثل هذا الفعل أو لأتوبن ، وأراد بمظاهرة المجرمين : أمــا صحبة فرعون وحضور مجالسه حيث كان منــه كالابن من أبيه وكان يسمى « ابن فرعون » ، وامــا معاونة أى فــرد بمــا يؤدى الى الاثم كمظاهرته الاسرائيلى التى انتهت بالقتل الذى لــم يحــل لــه .

وعن ابــن عباس : لم يستثن فابتلى بــه مرة أخرى أى لــم يقــل : فلن أكون ان شاء الله [١] .

وترشــدنا الآيات السابقة الى أمــور منها : ـ

★ أن ينصر المسلم أخاه مظلوما كان بمعاونته على اســترداد حقــه أو ظالما يدفعه عن الظلم .

★ الثبات عند الغضب ، والصبر عند الشدائد ، ومواجهة المشكلات بهــدوء وعقل وفــكر .

---

(١) القرطبي : ٢٥٩/١٤ والكشاف : ١٦٩/٣ .

★ أن فعل الشر من اغـواء الشيطان وتزيينه ٠

★ أن من أشد أنواع الظلم ظلم المـرء لنفسه ٠

★ الاستغفار من الذنب عقب الوقوع فيه رجاء نيل المغفرة ٠

★ قبول الله توبة عبـاده ومغفرته لهم ٠

★ العـزم والتصميم على عدم العـودة الى ارتكاب الذنـوب بمشيئة الله ٠

★ حمد الله وشكره على ما أنعم به من المغفرة والثواب ٠

٢ ـ استغفار داود عليـه السلام وغفـران الله لـه :

ذكر الله تعالى الاستغفار على لسان كثير من انبيائه ورسله عليهم السلام وذلك لا يقلل من ارتفاع قدرهم وعلو منزلتهم عند الله كمـا لا يتعارض مع عصمة الله لهم ، وانما يؤكد الاستغفار منهم انهم بشر لا يرتفعون عن الخطأ ، غير أن أخطائهم ليست كأخطاء بقية البشر ، انها هنـات هينة وقد عاتبهم الله عليها لشدة مؤاخذته لهم ومن هؤلاء الانبياء سيدنا داود عليه السـلام الذى ذكر الله قصته مع ما ذكـر من قصص الانبياء والمرسلين تسلية لسيدنا رسول الله (ﷺ) واقتـداء بهم فى الصبر والتحمل ٠

فقد فوجىء وهو عاكف فى محرابه والباب مغلق عليه وأمامـه الحراس بشخصين يطلبان منه أن يفصل بينهما فيمـا وقعا فيه مـن نزاع ، وبعد ذلك لـم يتبين لهما أثرا ، فأخذ يسـتغفر الله تعـالى وقبل الله استغفاره وقد قيل : أن استغفاره الله تعالى من ظنه بهما انهما يريدان بـه سـوءا وقد تأكد له غير ذلك ، أو من حكمه للمدعى بناء على ما تبين له من ظاهر حاله وعـدم صبره حتى سماع حجة المدعى عليـه ٠

التحليـل اللغـوى والبيانى :

« وهل أتاك نبأ الخصم » يراد من الاستفهام التعجب وتشويق السامع وتهيئة ذهنه للاهتمـام بمـا جـاء بعـده والتأمل فيه اعـلاما بأنه من الأخبار العجيبة والغريبة التى حقها أن تشيع فى كل حاضر وبـاد ، والنبأ : الخبر ، والخصـم : يراد به المخاصم ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا ، وأصل المخاصمة : أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أى بجانبه ، أو أن يجذب كل واحد خصم الشىء المتنازع عليـه من جانب .

وقد قيل : كانا اخوين من بنى اسرائيل لأب وأم ، وقيل : وهـو الأرجح كانا ملكين فى صورة رجلين لمفاجاته بهما وفزعه لوجودهما امامه مع وجود الحراس واغلاق الباب وعدم وجـــود أى منفـذ او ثغرقيدخلان اليه منها ، والجمع بعد ذلك فى قوله : « اذ تسوروا » و « اذ دخلوا » بالنظر الى معنى الخصم وأفراد الفريقين المتخاصمين « اذ تسوروا المحراب » أى علوا سوره ونزلوا اليه مثل : تسنم الجمل . أى : علا سنامه ، وتذرى الجبل أى : صعد الى ذروته . وسمى محراب المسجد بذلك : لانه موضع محاربة الشيطان والهوى .

« اذ دخلوا على داود ففزع منهم « ذكر ابن عباس رضى الله عنهما ان داود عليه السلام قـد وزع عمله فى الأيام على أربعة أجزاء ، يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما يشتغل فيه بأموره الخاصة ، ويوما لجميع بنى اسرائيل يعظهم ويبكيهم ، ففوجىء فى يوم عبادته وفى غير يوم القضاء باثنين بين يديه وقد اقتحما عليه كل هذه الحدود من : وجـود الحرس ، واغلاق الأبواب ، وفى يوم آخر غير يـــوم القضاء فخاف أن يؤذوه . فلما أدركوا خوفه ذكروا له أنهم أتوه للحكم والفصـــل .

« خصمان بغى بعضنا على بعض » يحتمل أن يكون ذلك من تتمة كلامهما ، ويحتمل أن يكون اجابة عن سؤاله لهما ما شانكما فقالا « خصمان » أى نحن خصمان جار بعضنا على بعض ٠

« فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط » أى افصل بيننا بالعدل ولا تبعد عن الحق ، وقد أرادوا بامرهم له عليه السلام بالحكم بالحق وبنهيهما له عن عدم الشطط اظهار الحرص على ظهور الحق والرضا به من غير ارتياب منهم فى عدله وقسطه وقد حملهم على ذلك الأسلوب وهذه الغلظة ما هم فيه من تخاصم وتشاجر ، ولا شك أن تحمل سيدنا داود عليه السلام ذلك منهم أعظم دلالة على ما ينبغى أن يكون عليه أهل القضاء والحكم من التحمل والصبر وبخاصة مع أصحاب المظالم الذين قد يصدر منهم وقت عرض مظلمتهم من الخطأ ما يعذرون – عليه ٠

« واهدنا الى سواء الصراط » أى الى طريق الحق الذى لا ميل فيه ولا عوج ٠

« ان هذا أخى له ٠٠٠ نعجة واحدة » يراد بالاخوة أما : أخوة الدين أو الصحبة أو الشركة وكل واحدة أدعى للعدل فى المعاملة والبعد عن الجور ٠ والنعجة يراد بها المرأة ، وقيل : انها النعجة الحقيقية وهى أنثى الضأن حيث لا ضرورة تدعو لذلك ٠

« فقال اكفلنيها » أى تحول لى عنها ، أو أعطها لى حتى أكفلها »

« وعزنى فى الخطاب » أى ان وجاهته وقوته جعلته يغلبنى بقوة حجته وكثرة أدلته (١) ٠

« قال لقد ظلمك ٠٠٠ نعاجه » قيل : أن ذلك ليس من ابتداء كلام داود عليه السلام عقب فراغ المدعى من دعواه ولا حكما بظاهر

---

(١) البحر المحيط : ٣٩١/٧

كلامه قبل سماع رد المدعى عليه وانما هو على تقدير : لئن كان ما تقول فقد ظلمك ، أو هناك محذوف تقديره : فاقر المدعى عليه ، فقال : لقد ظلمك ، ولم يذكر القرآن رد المدعى عليه لما هو معلوم من عدم الحكم الا بعد اجابة المدعى عليه .

ويذكر « أبو حيان » أن ما يقال من أن داود عندما ظهر له من مخايل الضعف ودلائل الظلم فى كلام المدعى تعجل الحكم بقوله : « لقد ظلمك » بدون انتظار لسؤال المدعى عليه وذلك ضعيف لا يعول عليه ، لكنا وان كنا نوافق « أبا حيان » فى صرف النظر عن كثير من الروايات التى ذكرت فى ذلك مما تتنافى مع مقام النبوة ومكانتها ، فانا نرى أن حكمه عليه السلام لظاهر حال المدعى قد يكون هو الذى اختبر به ، وذلك لا يعيبه فقد حكم بناء على الظاهر لكنه كانت المؤاخذة منه لنفسه ومن الله له لعظيم منزلته ولأن الأنبياء تشتد مؤاخذتهم .

« وان كثيرا من الخلطاء ... » أراد داود بهذه العبارة التى تعبر عن كثرة الظلم والاعتداء فى زمانه أن يواسى المظلوم عما جرى له من شريكه وأن له فى أكثر الشركاء أسوة ، والخلطاء : أى الشركاء الذى خلطوا أموالهم واحده : خليط .

« الا الذين ... وقليل ما هم » أى وهم قليل جدا الذين يتحامون عن البغى والعدوان وقد جاءت المبالغة فى قلتهم من تنكير لفظ « قليل » « ووجود » ما التى تتضمن معنى التعظيم والتعجب .

« وظن داود انما فتناه » أى علم وتيقن بما جرى فى مجلس الحكم أن الله ابتلاه وقيل : لما قضى بينهما نظر أحدهما الى صاحبه وضحك ثم صعدا الى السماء فعلم بذلك أن الله تعالى قد ابتلاه .

« فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب » عبر بالركوع عن السجود حيث ان الركوع يفضى الى السجود ، أو لمشابهة الركوع للسجود فى الانحناء حيث تقول العرب : نخلة راكعة ونخلة ساجدة (١) ٠

فغفرنا له ذلك ٠٠٠ « لزلفى » أى قربة بعد المغفرة « وحسن مآب » أى مرجع فى الجنة ، وقيل : الزلفى الدنو من الله يوم القيامة ٠

ويقول أبو حيان : « ليس فى الاستغفار ما يشعر بارتكاب أمر يستغفر منه ، وما يزال الاستغفار شعار الانبياء المشهود لهم بالعصمة ٠

٣ ـ استغفار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

(أ) استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لنفسه :

قال تعالى : « **أنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما واستغفر الله ان الله كان غفورا رحيما ٠ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ٠ هانتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا ٠ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ٠ ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ٠ ومن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم بـه بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا ٠ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** » ٠

سورة النساء : ١٠٥ ـ ١١٣ ٠

---

(١) روح المعانى : ٢٣ : ١٧٨ ٠

الاستغفار من وجوه ذكر العبد لربه ، وذكر العبد لربه ينبغى أن لا ينقطع لأى أمر من الأمور ، وسيد الذاكرين سيدنا رسول الله (ﷺ) كان يذكر الله فى اليقظة وفى المنام ، ومع اجتهاده فى ذكر ربه نرى الحق تبارك وتعالى وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يطلب منه بصيغة الأمر أن يستغفر الله والأمر فى ذلك اما لقصد المداومة والاستمرار ، أو الالهاب والتهيج ، أو لتنقية جانب الرسول (ﷺ) من أدنى شوائب الذنب كما سنرى فى الآيات السابقة التى تلفت الرسول (ﷺ) الى التريث فى معالجة الخصومات والتأنى فى الحكم – لأحد الخصمين قبل تبين ما لدى الطرف الآخر .

وقد ذكرت روايات متعددة فى سبب نزول الآيات السابقة منها ما ذكره الزمخشرى : أن طعمة بن أبيرق احد بنى ظفر سرق درعا من جار له اسمه « قتادة بن النعمان » ووضعه فى وعاء دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خرق فيه وخبأها عند رجل يهودى يدعى « زيد بن السمين « فالتمست الدرع عند طعمة » فلم توجد وحلف أنه لم يأخذها ولا علم له بها ، فتركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا الى منزل اليهودى فاخذوها فقال : دفعها الى طعمة وشهد له ناس من اليهود بما قال ، فقالت : بنو ظفر : انطلقوا بنا الى رسول الله (ﷺ) فسألوه أن يجادل عن صاحبهم ، وقالوا ان لم تفعل هلك وافتضح وبرىء اليهودى فهم رسول الله (ص) ان يفعل ، وأن يعاقب اليهودى ، وقيل : أن يقطع يده فنزلت (١) .

« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق » أى متلبسا بالحق . « لتحكم بين الناس » أى برهم وفاجرهم .

« بما أراك الله » أى بما عرفك وأوحى به اليك .

---

(١) الكشاف : ٥٦١/١ .

« ولا تكن للخائنين » أى طعمة ومن يعينه ، أو هو ومن يسير بسيرته ، واللام للتعليل ، وقيل : بمعنى عن أى لا تكن لأجلهم أو عنهـــم ٠

« خصيما » أى مخاصما للبراء - أولا تخاصم اليهود لأجل بنى ظفـــر ٠

« واستغفر الله ٠٠ » أى مما هممت به فى أمر طعمـة وبراءتـه لظاهر حاله - والهم بالشىء وبخاصة ما يظن أنه الحق ليس بذنب حتى يستغفر منه ، لكن لعظم النبى ﷺ وعصمة الله تعالى له وتنزيهه عمـا يوهم النقص أمره بالاستغفار لزيادة الثواب وارشادا لـه الى التثبيت وأن ما ليس بذنب مما يكاد يعد حسنة من غيره اذا صدر منه ﷺ أو شك أن يكون كالذنب مراعاة لمقامه المحمود (١) ٠

ويقول ابن عطية : وهذا ليس بذنب ، لأن النبى ﷺ ، انما دافع على الظاهره وهو يعتقد براءتهم - والمعنى : واستغفر الله للمذنبين من أمتك والمتخاصمين بالباطل ومحلك من الناس أن تسمع من المتخاصمين وتقضى بنحو ما تسمع ، وتستغفر للمذنب ، وقيل : هو أمر بالاستغفار على طريق التسبيح كالرجل يقول : أستغفر الله من غير أن يقصد توبة من ذنب ، وقيـل : الخطاب للنبـى ﷺ والمراد : بنو أبيرق كقـــوله تعالى : « يأيها النبى اتـق الله ٠٠ » (٢) ٠

« ولا تجـادل » المجادلة : المخاصمة من الجـدل وهو الفتـل ، وقيل : من الجدالة وهى الأرض ، فكل واحد من الخصمين يريد أن يلقى صاحبـه عليهـا (٣) ٠

---

(١) روح المعانى : ١٤٠/٥
(٢) الجامع لأحكام القـرآن : ٣٧٨/٥ ٠
(٣) المصـدر السابق ٠

« عن الذين يختانون أنفسهم » أى يخونونها بالمعصية جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم كما جعلت ظلما لها لأن الضرر راجع اليهم ، وقد قيل : للخائنين « ويختانون أنفسهم » بينما كان السارق طعمة وحده ؟ وذلك لمشاركة بنى ظفر له فى شهادتهم له بالبراءة ونصرتهم له فكانوا شركاء له فى الاثم ، أو ليتناول ذلك « طعمة » وكل من أتى بمثل خيانته (١) .

« وخوانا » من صيغ المبالغة ، وذلك لعظم قدر تلك الخيانة (٢) .

« يستخفون » أى يستترون ، « من الناس » حياء منهم وخوفا من ضررهم .

« ولا يستخفون من الله وهو معهم » ولا يستحيون منه وهو عالم بهم مطلع عليهم لا يخفى عليه خاف من شرهم وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم ان كانوا مؤمنين أنهم فى حضرته لا سترة ولا غفلة ولا غيبة (٣) .

« اذ يبيتون » أى يدبرون ويزورون ، وأصله أن يكون بالليل .

« مالايرضى من القول » وهو تدبير « طعمة » أن يرمى بالدرع فى دار اليهودى ليخفى جريمته ويحلف ببراءته ، وسمى التدبير قولا وانما هو معنى فى النفس ، حيث حدث به نفسه فسمى قولا على المجاز ، ويجوز أن يراد بالقول : الحلف الكاذب الذى حلف به بعد بينه (٤) . أو لعلهم اجتمعوا فى الليل ورتبوا كيفية المكر فسمى الله كلامهم ذلك بالقول المبيت الذى لا يرضاه سبحانه (٥) .

---

(١) الكشاف : ٥٦٢/١ .
(٢) القرطبى : ٣٧٨/٥ .
(٣) الكشاف : ٥٦٢/١ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) روح المعانى : ١٤١/٥ .

« وكان الله بما يعملون محيطا » أى بعملهم أو بالذى يعملونه من الأعمال الظاهرة والخافية حفيظا ، أو عالما لا يعزب عنه شىء ٠

« ها أنتم هؤلاء ٠٠٠٠ » ٠

ها للتنبيه فى « أنتم و » اولا « والأولى مبتدأ والثانية خبر ، « جادلتم » جملة مبينة لوقوع « أولا » خبر كقولك لبعض الأسخياء أنت حاتم تجود بمالك وتؤثر على نفسك ، ويجوز أن يكون « أولا » اسما موصولا بمعنى الذين « وجادلتم » صلته ، والمعنى ، هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وقومه فى الدنيا فمن يخاصم عنهم فى الآخرة اذا أخذهم الله بعذابه ٠

« وكيلا » أى حافظا ومحاميا من يأس الله وانتقامه والاستفهام انكار للتوبيخ ، فيه تعنيف شديد لكل من يتصدى بالدفاع والتأييد لظالم وأنه لا ينبغى أن يكون ٠

باب التوبة مفتوح بالاستغفار :

« ومن يعمل سوءا أو يظلم ٠٠٠ عليك عظيما » النساء ٠

بعد أن وضحت الآيات السابقة بغض الله لكل الخائنين الذين لا يخافون الله ولا يستحيون منه ، ووبخت كل من يتصدى ويتصدر لنصرة خائن وهو على علم بخيانته تأتى الآيات التالية لتعلق أن باب التوبة الى الله مفتوح بالاستغفار الصادق والتوبة الخالصة ٠

وقال ابن عباس : عرض الله التوبة على بنى أبيرق بهذه الآية ٠ وقال الضحاك : نزلت الآية فى شأن وحشى قاتل حمزة أشرك بالله وقتل حمزة ، ثم جاء الى رسول الله (ﷺ) وقال : انى لنادم فهل لى من توبة ؟ فنزلت : « ومن يعمل سوء ٠٠٠ الآية – وروى سفيان عن أبى اسحاق عن الأسود وعلقمة قالا : قال عبد الله بن مسعود :

من قــرأ هاتين الآيتين من سورة « النساء » ثــم استغفر غفر له « ومن يعمل سوءا ... » ولو أنهم اذ ظلموا ... وروى عن على رضـــى الله عنــه أنه قال : كنت اذا سمعت حديثا من رسول الله (ﷺ) نفعنى الله به ما شاء ، واذا سمعته من غيره حلفته ، وحدثنى أبو بــكر وصدق أبو بكر قال : ما من عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ ويصلى ركعتين ويستغفر الله إلا غفــر له ، ثم تلا هذه الآية « ومن يعمل ســوءا او يظلم ... « وقيل : وهو الراجح ، المراد بهذه الآية العموم والشمول لجميع الخلق .

« ومن يعمل سوءا » أى أمرا قبيحا يسوء به غيره كما فعــل « طعمة » بقتادة واليهودى .

« أو يظلم نفسه » بما يختص به كالحلف الكاذب وقيل : « ومن يعمل سوءا من ذنب دون الشرك - « أو يظلم نفسه بالشرك (١) .

« فانما يكسبه على نفسه » أى تعود عاقبته عليه .

« ومن يكسب خطيئة أو اثما » قيل معناهما واحــد ، وكــررا لاختــلاف اللفظ تاكيدا ، وقـــال الطبرى : الخطيئة تكــون عن عمــد وعن غير عمــد ، والاثم لا يكون الا عن عمد وقيـــل : الخطيئــة : الصغيرة ، والاثم : الكبيرة والآية لفظها عام يتناول أهــل الواقعـــة وغيرهم .

« ثم يرم به بريئا » الهــاء فى » « بــه » للاثم أو للخطيئة لأن معناها الاثم ، أولهما جميعا ، وقيل : ترجع الى الكسب .

« فقد احتمل ... مبينا » الذنوب ثقل ووزر فهى كالمحمولات

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٣٨٠/٥ .

ففيـه استعارة تصريحية فى « احتمل » ـ والبهتان من البهت ، وهو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنب وهو منه برىء ، فقـد روى مسلم عن أبى هريرة ان النبى (ﷺ) قال : « أتـدرون ما الغيبـة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قـال : ذكرك أخاك بما يكره ـ قيـل : أفرأيت ان كان فى أخـى ما أقول ؟ قال : ان كان فيه ما تقول فقـد اغتبته ، وان لم يكن فيه فقد بهته [١] .

« فضل الله عليك ورحمته » أى عصمته والطافه ، وما أوحـى اليك من الاطلاع على سرهم .

« لهمت طائفة منهم » أى من بنى ظفر .

« أن يضلوك » عن القضاء بالحق ، وتوخى طريق العدل مع علمهم أن الجانى هو صاحبهم ، فقد روى أن ناسا منهم كانوا يعلمون حقيقة القصـة .

« وما يضلون الا أنفسهم » لأن وباله عليهم .

« وما يضرونك من شىء » لأنك انما عملت بظاهر الحـال ، وما كان يخطر ببالك أن الحقيقة على خلاف ذلك .

« وعلمك ما لم تكن تعلم » من خفيات الأمور وضمائر القلوب ، أو من أمور الدين والشرائع ، ويجوز أن يراد بالطائفة : بنو ظفر ، ويرجع الضمير فى « منهم » الى الناس ، وقيل الآية فى المنافقين ، وترشدنا الآيات السابقة الى :

★ الفصل فى القضايا والخصومات بحكم الله وشرعه .

---

(١) القرطبـى .

★ أن يتروى القاضى والحاكم فى دراسة دعاوى كل من الخصمين ، وأن يحذر الانحياز الى واحد منهما .

★ علو قدر الرسول (ﷺ) وارتفاع شانه بدليل طلب الاستغفار منه على الهم بالخير .

★ سماحة الاسلام وعدالته مع غير اتباعه .

★ البعد عن نصرة الظالمين والخائنين .

★ احاطة الله بكل ما يضمره الناس .

★ لا تزر وازرة وزر أخرى .

★ الصاق التهم بالابرياء بعد التخلص منها من أكبر الذنوب .

★ فضل الله على الرسول (ﷺ) وعلى جميع المسلمين .

(ب) استغفاره (ﷺ) لنفسه - شكرا لله على وعده له بالنصر كغيره من الرسل عليهم السلام .

« فاصبر ان وعد الله حق ... والابكار » غافر : ٥٥ أكد الله فى الآيات السابقة على هذه الآية وعده رسله والمؤمنين بالنصر ، ودعا الرسول (ﷺ) الى الصبر على ما يعانيه وأن الله ناصر له كنصره رسله عليهم السلام من قبله ، ثم أمره باستغفاره والتسبيح بحمده شكرا على ما أولاه من نعم .

« فاصبر ان وعد الله حق » أى اصبر على أذى المشركين كما صبر من قبلك ، فان الله لا يخلف وعده بنصرك كما نصر رسله عليهم السلام .

« واستغفر لذنبك » قيل : يراد به ذنب أمتك فحذف المضاف اليه .. ، وقيل : يراد به ما كان للرسول (ﷺ) من ذنوب قبل

النبوة ، وقيل : لا ذنب يستغفر منه وإنما يراد : الاشتغال باللاستغفار رفعا لمنزلته عند الله وأن يقتدى بـه الناس من بعـده (١) .

وأرى أنه يراد بالذنب : الهنات التى عاتب الله رسوله (ﷺ) فى غير موطن عليها ، كموقفه من أسرى بـدر والصلاة على المنافقين واعراضه عن ابن ام مكتوم وغير ذلك من أمور كانت منه (ﷺ) بقصد نصرة الله ونصرة دينه لكنه عوتـب عليها نظرا لمقامه العظـيم عند الله وتاكيدا لكونه عبـدا من عبـاد الله .

« وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار » أى فى صلاة الفجـر وصلاة العصر ، وقيل : الابكار : أول النهار الى منتصفه ، والعشى : من منتصف النهار الى آخره فيتناول التسبيح والتحميد كل الأوقات ، وقيل : المراد بهما : طرفا النهار كما قال تعالى : « واقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل .... « وبالجملة فان المراد الأمر بالمواظبة على ذكر الله ، وأن لا يفتر اللسان عنـه وان لا يغفـل القلب عنـه ، حتى يدخل الانسان فى زمرة الملائكة الذين وصفهم الله بقوله : « يسبحون الليـل والنهار لا يفترون (٢) .

(جـ) استغفاره (صلى الله عليه وسلم تعبدا لله تعالى شكرا وتواضعا :

ذكرنا أنه ليس بلازم أن يكون استغفار المسلم لذنب وقع منه ، وأن الاستغفار يكون مع أداء الفرائض والنوافل وفى ختامهـا درءا لنقص وقع فيها ، أو رفعا لغرور محتمل ، كذلك يكون الاستغفار شكرا لله على ما أولى من نعم ، وتواضعا من العبـد لربـه واعترافـا منـه بالتقصير فى شكره كما تشير الى ذلك سورة « النصر » التى يفيدنا

---

(١) القرطبى : ١٥/٣٢٤ .
(٢) التفسير الكبير : ٢٧/٧٨ .

الامــر بالاستغفار فيها للرسول (ﷺ) وفى الآيات السابقة أن الاستغفار تعبــد لله تعالى وصيغة من صيغ ذكر العبد لربه .

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى ديــن الله افواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره أنه كان توابا »

التحليــل اللغــوى والبيانى :

« اذا جاء نصر الله والفتح » المراد بالنصر امـــا نصر الرســول (ﷺ) على قريش أو من قاتله من المشركين أو صلح الحديبية وكان فى سنة ست من الهجرة ، وبالفتح : فتح مكة وكان فى العام الثامن .

« ورأيت الناس » أى عبدة الأوثان من العرب كأهل مكة والطائف وهوازن ، وقيل : يراد بالناس : أهل اليمن ، وذلك أنه قدم اليـــه (ﷺ) من اليمن سبعمائة فرد مؤمنين طائعين ، بعضهم يـؤذن ، وبعضهم يقرأ القرآن ، وبعضهم يهلل ، فسر النبى (ﷺ) وبكى عمر وابن عباس ، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قـال (ﷺ) : « أتاكم أهل اليمن ، هم اضعف قلوبا ، وأرق أفئدة ، الفقه يمـــان ، والحكمة يمانية » .

« يدخلون فى دين الله » أى يعتنقون دين الاسلام الذى يعد دين الله الخاتم الذى لا دين غيره ولا بعده قال تعالى : « ومن يبتغ غـــير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (١) .

« أفواجا » أى جماعات كثيرة ، أصبحوا يدخلون فيه بالمئـــات والآلاف بعد أن كانوا يدخلون فيــه واحدا واحدا واثنين اثنين .

« فسبح بحمد ربك « أى قل سبحان الله وبحمده متعجبـــا من

---

(١) سورة آل عمران : ٨٥ .

تيسيره العظيم عليك بما لم يكن يخطر ببالك ودل احد من الناس من دخولك مكه فاتحا ودخول أهلها وغيرهم من العرب فى دين الله – أو اذكره مسبحا له وحامدا نعمه العظيمة عليك ، أو فصل له ٠

« واستغفره » وأمره صلى الله عليه وسلم بالاستغفار هنا يراد به أمور منها : انه (ﷺ) كان يستقل ما يقوم به من طاعة لله وعبادة له وشكر له لعظيم نعمه ويرى تقصيره فى ذلك ذنبا ، فكان يقوم بالاستغفار تعبدا ، ولذلك شرع الاستغفار عقب الانتهاء من الصلاة المفروضة ثلاثا ، وللمجتهد بالليل ، وللحاج عقب الفراغ من مناسك الحج « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم [١] ٠

وبعد الانتهاء من الوضوء ، وعند الانتهاء من المجلس وقد كان (ﷺ) يقول اذا قام من المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب اليك ٠

وقيل : يراد بالاستغفار : تنبيه أمته كيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار ، وقيل : يراد به الاستغفار للامة ، والراجح هو الرأى الاول الذى يرى أن الأمر بالاستغفار : تعبد لله وذكر له وشكر وثناء على عظيم نعمه ٠ وتقديم التسبيح والحمد على الاستغفار من أدب الدعاء فى الثناء على من يسال قبل سؤاله ٠

« أنه كان توابا » اى جديرا بالتوبة على عبادة العائدين اليه الذين يتيقنون من اجابة الله لهم ٠

واختيار « تواب » بدلا من « غفار » الذى يناسب « استغفره » فى الظاهر للتنبيه على أن الاستغفار لا يكون باللسان فقط ، وانما لابد معه من التوبة والاقلاع عن الذنوب ٠

---

(١) القرطبى : ٢٠/٢٣١ ٠

روى انه لما نزلت هذه السورة خطب (ﷺ) فقال : ان عبدا خيره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله ، فشعر أبو بكر باقتراب رحيله (ﷺ) فقال : « فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا » ، وروى أيضا أنه (ﷺ) دعا فاطمة فقال : يابنتاه : انه نعيت الى نفسى فبكت فقال : لا تبكى فانك أول أهلى لحوقا بى . وروى البخارى عن عائشة قالت : ما صلى رسول الله (ﷺ) صلاة بعد أن نزلت عليه : « اذا جاء نصر الله والفتح « الا يقول : » سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى [1] .

٢ — استغفار الرسول (صلى الله عليه وسلم) لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات :

الاستغفار دعاء بطلب المغفرة من الله ، وقد استحب أن يدعو المسلم لأخيه يظهر الغيب حيث يكون دعاؤه أكبر رجاء للاجابة من الله وأكثر ثوابا له ، وعلى رأس الداعين سيدنا رسول الله (ﷺ) صاحب الشفاعة العظمى ، لذلك يامره الله بالاستغفار لنفسه ولجميع المؤمنين والمؤمنات فى قوله :

« فاعلم أنه لا الـه الا الله ... متقلبكم ومثواكم » .

محمد : ١٩ .

التحليل اللغوى والبيانى :

« فاعلم أنه لا الـه الا الله » فى أمر الله له (ﷺ) بذلك مع سبق علمه عدة تفسيرات :

أحداها : اعلم أن الله أعلمك أن لا الـه الا الله .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٩ .

ثانيها : ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا .

ثالثها : اذكر أن لا اله الا الله فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه وعن سفيان بن عيينه أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به « فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك » فأمر بالعمل بعد العلم .

« واستغفر لذنبك » يراد بذلك وجوه منها : استغفر الله أن يقع منك ذنب ، أو استغفر الله ليعصمك من الذنوب ، وقيل : الخطاب له (ﷺ) والمراد الأمة ، وعلى ذلك توجب الآية استغفار الانسان لجميع المسلمين ، وقيل : كان (ﷺ) يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين ، فنزلت الآية ، وقيل : الأمر بالاستغفار لتقتدى به الأمة [١] .

وقيل : وهو ما نميل اليه ان الأمر له (ﷺ) بالاستغفار كناية عما ينبغى أن تستمر عليه من التواضع وهضم النفس والاعتراف بالتقصير ، حيث أنه (ﷺ) معصوم ، والذنب بالنسبة له : ترك ما هو الاولى بمنصبه الجليل ، اذ رب — حسنة لشخص تكون سيئة لآخر كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد ذكروا أنه (ﷺ) كان له فى كل لحظة عروجا الى مقام أعلى مما كان فيه فيكون ما عرج منه فى نظره الشريف ذنبا بالنسبة الى ما عرج اليه فيستغفر منه .

« وللمؤمنين والمؤمنات » على حذف مضاف بقرينة ما قبل ، أى ولذنوب المؤمنين والمؤمنات ، وهذا أمر بالشفاعة وأعيد الجار لأن ذنوبهم جنس آخر غير ذنبه ﷺ فان ذنوبهم معاص : كبائر وصغائر وذنبه ﷺ : ترك الأولى بالنسبة الى منصبه الجليل .

---

(١) القرطبى : ٢٤١/١٦

وفى تقديم الأمر بالتوحيد ايذان بمزيد شرف التوحيد فانه أساس الطاعات ونبراس العبادات (١) .

« والله يعلم متقلبكم ومثواكم » أى يعلم ما تعملون فى الليل والنهار ، أو فى الدنيا والآخرة ، أو على ظهر الدنيا وفى القبور .

وجميع ذلك مقبول ومراد ، اذ يعلم الله تعالى جميع تحركات الانسان وكل أطواره سبحانه « قد أحاط بكل شىء علما (٢) .

٣ — استغفار الرسول ﷺ للمؤمنات بعد مبايعتهن له :

دعا الله تعالى الرسول ﷺ الى أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات بصفة عامة ، والى أن يستغفر لهم ولهن بعد تنفيذهن لأمر من الأمور التى دعاهم الله اليها أملا فى نيل القبول والرضا من الله وجبرا وتكفيرا لما يكون اعترى هذا الأمر من نقص أو تقصير . كطلبه منه ﷺ أن يستغفر للمؤمنات بعد مبايعتهن له فى هذه الآية الكريمة « يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات ... ان الله غفور رحيم » .

سورة الممتحنة : ١٢

روى مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت : كانت المؤمنات اذا هاجرن الى رسول الله ﷺ يمتحن بقوله تعالى : يأيها النبى اذا جاءك المؤمنات ... الى آخر الآية قالت عائشة : فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمحنة ، وكان رسول الله ﷺ اذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن : « انطلقن فقد بايعتكن » ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط غير أنه بايعهن بالكلام .

(١) روح المعانى : ٥٥/٢٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٢/١٦

« **ولا يقتلن أولادهن** » يراد به : وأد البنات واسقاط الأجنة .

« ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » أى لا يلحقن برجالهن أولادا من غيرهم ، اذ كانت المرأة تلتقط الولد وتلحقه بزوجها قائلة : هذا ولدى منك فكان ذلك من البهتان والافتراء .

« ولا يعصينك فى معروف » أى فى كل أمر وافق طاعة الله كفعل بعض ما كان يفعله نساء الجاهلية من النوح على الميت ، وتمزيق الثياب، وشق الجيوب ، والخلوة بغير المحرم والسفر معه .

فبايعهن « جواب » اذا « أى اذا بايعنك على هـذه الشروط فبايعهن بضمان الثواب من الله على وفائهن بهذه الأشياء ، وتقييـد المبايعة بمجيئهن لحثهم على المسارعة اليها .

واختلف فى كيفية مبايعته ﷺ لهن فقيل : كان يبايعهن وبين يده وأيديهن ثوب ، وقيل : كان يشترط عليهن المبايعة وعمر رضى الله عنـه يصافحهن، وقيل : كانت المبايعة بالكلام، وقيل : دعا بقدح من ماء فغمس يده فيه ثم غمس أيديهن فيه ، وما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط .

« واستغفر لهن الله » أى اسأل الله لهن المغفرة زيادة على ما فى المبايعة من الثواب .

« ان الله غفور رحيم » أى مبالغ فى المغفرة والرحمة فيغفر لهن ويرحمهن اذا وفين بما بايعن عليه (١) .

٤ - استغفار الرسول ﷺ لأصحابه :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت

---

(١) القرطبى ٧١/١٨ وروح المعانى : ٨٠/٢٨ - ٨١ .

فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين · ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

آل عمران : ١٥٩ – ١٦٠

أى ان رفقك بالمسلمين الذين فروا وتركوا مواقعهم فى أحـــد وكانوا سببا فى تحول النصر الى هزيمة وعـدم تعنيفهم على ذلك كان وراء عودتهم اليك والتفافهم حولك اذلو واجهتهم باللوم على ما صـدر منهم لتفرقوا من حولك هيبة وحياء ، وقـد كان سلوك هذه الطريقة من الادب العالى منك معهم بتوفيق الله لك ·

التحليل اللغــوى والبيــانى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم » « مـا » صلة فيها معنى التوكيد ، ورحمة بدل منها ، أى ان رفقك بهم تم بتوفيق الله لك ، وقيل : « مـا » استفهام بمعنى التعجب أى : فبأى رحمة من الله لنت لهم وذلك بعيـد لانهـا لو كانت استفهاما لكانت « فبم » بدون ألف (١) ·

« ولو كنت فظا غليظ القلب » الفظ : الغليظ الجافى ·

« لا نفضوا » اى لتفرقوا ، وأصل الفض : الكسر ، ومنـه قولهم : لا يفضض الله فـاك ·

« فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » ·

مجىء هذه الأوامر على ذلك الترتيب لأسرار دقيقة فقد أمـره بالعفو عنهم فيما يتعلق بذنوبهم معه خاصة · وبعد أن تحقق ذلك أمره ثانية باستغفار الله لهم من اثمهم مـع الله ، فلما وصلوا الى هذه الدرجة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٤٨/٤ ·

من الصلاح مع الله ورسوله أصبحوا أهــلا للمشورة فأمره بمشاورتهم فيما يعــن من أمــور .

ولطلب الله من الرسول (ﷺ) أن يشاورهم فوائد منها : أن الله تعالى وان كان قد كفاه الحاجة الى رأى الناس بتأييده بالوحى الا أنه أمره بالمشاورة تطييبا لنفوسهم ، ورفعا لأقدارهم وتأليفا لهــم ، وليتعلموا ما فى المشاورة من الفضل ، ولتقتدى به الأمة من بعــده ، قــال (ﷺ) :

« ما ندم من استشار ولا خاب من استخار » وروى سهل بــن سعد الساعدى عنه (ﷺ) : « ما شقى قط عبد بمشورة وما ســـعد باستغناء رأى » ، وقال بعضهم : شاور من جرب الأمور ، فانه يعطيك من رأيه ما وقــع عليه غاليا وأنت تأخذه مجانا (١) .

« فاذا عزمت فتوكل على الله » أى اذا قطعت الرأى على شىء بعد الشورى فتوكل على الله فى أمضاء امرك على الأرشد الأصلح ، فان ما هو أصلح لك لا يعلمه الا الله لا أنت ولا من تشاور (٢) .

والآية دليل واضح على أن التوكل الحقيقى على الله يتحقق بتفويض الأمر لله بعد الأخــذ بالأسباب .

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم ..... »

جملة مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب تشريفا للمؤمنين لبيان فضل التوكل على الله والترغيب فى طاعته التى تكون سبيلا لاستحقاق النصر والتحذير عن معصيته التى تكون سببا فى استحقاق الخــذلان ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٥١ .
(٢) الكشاف : ٤٧٥/١ .

أى ان ان يرد الله نصركم كما أراده يوم بدر فـلا أحد يغلبكم وان يرد خـذلانكم ويمنعكم معونته كما فعل يوم أحد فلا أحد ينصركم ٠

« وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم » استفهام انكارى مفيـــد لانتقاء الناصر على نحو انتقاء الغالب ، وقيل : جاء جواب الشرط فى الأول صريح النفى ولم يجىء فى الثانى كذلك تلطفا بالمؤمنين حيث صرح لهم بعدم الغلبة ولم يصرح بأنه لا ناصر لهم وان كان الكلام مفيدا لــه ٠

« من بعده » أى من بعد خذلانه أو من بعد الله تعــالى ٠

« وعلى الله » أى لا على غيره كما يدل على ذلك تقديم الجــار والمجـــرور ٠

« فليتوكل كل المؤمنون » المراد بهم : جميع المؤمنين فيدخل فيه المخاطبون بطريق الأولى ، واما للمخاطبين خاصة بطريق الالتفات ، وعلى التقديرين لا يخفى ما فى ذلك من تشريف المخاطبين مع الايمــاء الى تحتم التوكل على الله تعــالى [١] ٠

٥ – استغفاره (صلى الله عليه وسلم) والصحابة دفعا لتقصير وقـــع أوردا لغرور محتمل :

ذكرنا أن المسلم لا ينقطع عن ذكر الله واستغفاره ، وليس بلازم أن يكون استغفاره لذنب ارتكبه ، بل أنه يستغفر الله وهو يعبده وفى ادائه للفرائض والنوافل : جبرا لما يكون فيها من نقص أو تقصير لم يفطـــن لــه ، أو دفعا لغرور محتمل بوسوسة الشيطان وتزيينه ، أو اعـــلاما بتقصيره فى حمد الله وشكره مهما بلغت عبادته ٠

---

(١) روح المعانى : ١٠٨/٤ ٠

« ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم **فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرؤا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم »** ٠

سورة المزمل : ٢٠

لقد طلب الله من الرسول والمسلمين فى أول بعثته اعدادا لهم وتربية أن يقوموا ثلثى الليل أو نصفه أو ثلثه بالصلاة وتلاوة القرآن فكانوا يجتهدون فى تنفيذ ذلك الى حد قيامهم الليل كله حيث لم تكن عندهم السبل التى تحدد لهم : الثلث والنصف والثلثين حتى تورمت أقدامهم وامتقعت الوانهم فخفف الله عنهم ذلك بأن يكون قيامهم الليل على قدر طاقتهم وحسب ما تيسر عليهم ٠ ومراعاة لظروف المرضى الذين لا يمكنهم المرض من ذلك ، وللتجار والمجاهدين الذين يقضون معظم وقت النهار فى العمل والمشى والجهاد فيصعب عليهم قيام وقت طويل من الليل ٠

التحليل اللغوى والبيانى :

« فتاب عليكم » يراد بالتوبة الترخيص فى قيام ما تيسر من الليل وعدم الالتزام بالثلثين أو النصف أو الثلث لصعوبة تحديد ذلك عليهم ولمشقته على كثير من الناس كالمرضى والمسافرين للتجارة وغيرها والمجاهدين فى سبيل الله ٠

« فاقرأوا ما تيسر من القرآن » يراد بالقرآن : اما الصلاة التى

عبر عنها بالقراءة لكونها احد أركانها ، أو يراد القراءة الحقيقيـــة ٠ وتكرار الأمر بالقراءة للتأكيد ٠

« علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضـــربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سيل الله » تعليل آخـــر لنسخ الأمر بقيام الثلثين أو النصف أو الثلث الى ما تيسر من أجـل هؤلاء أصحاب الاعذار والحاجات وفى تسوية القرآن بين المسافرين للتجارة والمجاهدين فى سبيل الله فى ذلك أوضح دليل على فضـــل التجارة والكسب الحلال ، فعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه : أيما رجل جلب شيئا الى مدينة من مدائن المسلمين صابرا محتسبا فباعـه بسعر يومه كان عنـد الله من الشهداء » وعن عبد الله بن عمر : مـــا خلق الله موته أموتها بعد القتل فى سبيل الله أحب الى من أن أموت بين شعبتى رجل أبتغى من فضل الله ٠

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » أى الصلاة المفروضة » ٠

« واقرضوا الله قرضا حسنا » يراد به اما : الزكـاة المفروضـــة باخراجها على وجهها الحسن : من مال طيب واعطائها من يستحقها ابتغـاء وجه الله بدون من ولا أذى ، أو سائر الصدقات وهو ما نرجحه لوقوعه بعد الأمر بالزكاة ٠

« وما تقدموا لانفسهم من خير تجـدوه عند الله هو خـيرا » أى ما تقومون بـه من طاعة فانما تقدمونه لانفسكم لأن خيره ونفعه يعود عليكم ، وهو أكثر خيرا عند الله ٠

واعظم أجرا » أى يكافئكم على الحسنة بعشرة الى سبعمائة الى أضعاف كثيرة ٠

« واستغفروا الله » من ذنوبكم وما وجد من تقصير منكم وبخاصة فى قيام الليل ٠

« ان الله غفور » لذنوب المؤمنين ٠

« رحيم » بهم ٠

٦ ـ مغفرة الله ما تقدم وما تأخر من ذنوبه (صلى الله عليه وسلم :

« انا فتحنا لك فتحا مبينا ٠٠٠٠٠

قيل : المراد بالفتح : فتح مكة ، وقد نزلت هذه الآيات عليه (ﷺ) وهو عائد من الحديبية فى العام السادس من الهجرة وعدا من الله للرسول (ﷺ) وتبشيرا له بفتح مكة ، والتعبير بالفعل الماضى للدلالة على تحقق الوقوع ، وفى ذلك أعظم دلالة على علو شأن المخبر (١) ٠

وقيل : وهو الراجح يراد بالفتح : الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة عليه (ﷺ) بينما كان عائدا مع أصحابه من الحديبية ومن بيعة الرضوان ، فالتفت لهم وقال : أنزلت على سورة هى أحب مما طلعت عليه الشمس « أنا فتحنا لك فتحا مبننا ٠٠٠ الآيات ، وكانت الحديبية تمهيدا لفتح مكة ، حيث انعم الله على المسلمين بمغانم كثيرة ، ودخل كثير من المشركين فى دين الله ، مما يرجح ما يقال ان مكة تعد قد فتحت من الحديبية فى العام السادس للهجرة على الرغم من أن الرسول لم يدخلها فاتحا مع المسلمين الذى اقترب عددهم من عشرة آلاف إلا فى العام الثامن ، وذلك سر التعبير بالفعل الماضى « فتحنا » ٠

« ليغفر لك الله » متعلق بالفتح ٠ كأنه قال : « انا فتحنا لك

---

(١) الكشاف : ٣/٥٤٠ ٠

فتحا مبينا » لنجمع لك مع الفتح المغفرة وما تقـر به عينك فى الدنيا والآخـرة .

ويقال : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ ولكن لاجتماع هـذه النعم الأربع وهى : المغفرة ، واتمام النعمة ، والهداية الى الصـراط المستقيم ، والنصر العزيز ، كأنه قال : يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لنجمع لك عـز الدارين ، ويجـوز أن يكون فتح مـكة من حيث أنه جهـاد للعـدو سببا للغفران والثواب .

« ما تقدم من ذنبك وما تأخر » قيل يراد بالذنب المتقدم : ما وقـع قبـل الرسالة والمتأخر : ما وقـع بعدها وقيل : الذنب المتقدم : ما وقع قبل الفتح ، وبالمتأخر ما وقع بعد الفتح ، وقيل : المتقدم : ما وقع قبل نزول هذه الآية ، والمتأخر : ما وقع بعـدها .

وقيل : الذنب المتقدم ، ما وقع يوم بدر ، والمتأخر ما وقـع يوم « حنين » ففى يوم « بـدر » جعل يدعو ويقول : « اللهـم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض أبـدا وأخذ يردد هذا القـول عـدة مرات ، فأوحى الله اليـه من أين تعلم أنى لو أهلكت هـذه العصابة لا اعبد ابدا فذلك هو الذنب المتقدم .

وأما الذنب المتأخر : فيوم حنين ، لمـا انهزم الناس قال لعمه « العباس » ولابن عمه « أبى سفيان » : نـا ولانى كفا من حصـباء الوادى فنا ولاه فأخذه بيده ورمى بـه فى وجوه المشركين وقـال : « شاهت الوجوه ، حم . لا ينصرون فانهزموا عن آخرهم ، ولم يبق واحد منهم الا امتلأت عيناه رملا وحصباء ، ثم نادى أصحابه فرجعوا فقال لهم عند رجوعهم : « لو لم أرمهم لم ينهزموا » فأنـزل الله : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمـى » فكان ذلك هو الذنب المتأخر .

« ويتم نعمته عليك » قيل : بالنبوة والحكمة ، وقيل : بفتح مكة والطائف وخيبر ، وقيل : بخضوع من استكبر وطاعة من تجبر .

« ويهديك صراطا مستقيما » أى يثبتك على الهدى الى أن يقبضك اليـــه .

« وينصرك الله نصرا عزيزا » أى عاليا منيعـا لا يتبعه ذل (١) .

ثانيا : دعوة الرسل عليهم السلام أقوامهم الى الاستغفار :

أما الآيات التى اشتملت على دعوة الرسل عليهم السلام اقوامهم الى الاستغفار فتتمثل فيما يلى : ـ

١ ـ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يدعو قومه الى الاستغفار والتوبة من الشرك . قال تعالى : « **ألا تعبدوا الا الله اننى لكم منه نذير وبشير . وان استغفروا ربكم ثـم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجـل مسمى ويـؤت كل ذى فضل فضله وان تولوا فانى أخـاف عليكم عذاب يوم كبير . الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير** » .

سورة هود : ٢ ـ ٤

٢ ـ سيدنا « هود » عليه السلام يدعو قومـــه « عـاد » الى توحيد الله واستغفاره والتوبة اليه ، قال تعالى : « **والى عـاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الـه غيره ان أنتـم الا مفترون . يا قـوم لا أسالكم عليه أجرا أن أجـــرى الا على الذى فطرنى أفـلا تعقلون . ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مـدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** » .

سورة هود : ٥٠ ـ ٥٢

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٠/١٦ .

٣ — سيدنا صالح عليه السلام يدعو قومه « ثمودا » الى توحيد الله والاستغفار والتوبة ، قال تعالى « **والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب** » ٠

سورة هود : ٦١

وكذلك فى سورة النمل « **ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا ان اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون ٠ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ٠ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون** » ٠

سورة النمل : ٤٥ — ٤٧

٤ — سيدنا شعيب عليه السلام يدعو قومه الى توحيد الله والاستغفار والتوبة فى قوله تعالى : « **والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم اوفو المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ٠ بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ٠ قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد ٠ قال ياقوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب ٠ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد ٠ واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود** » ٠

سورة هود : ٨٤ — ٩٠ ٠

اتفاق الرسل (صلى الله عليهم وسلم) فى دعـوة الناس الى التوحيـد والاستغفار والتوبة

انه معلوم أنه لا فرق بين الديانات السماوية من حيث العقيدة اذ تدعو جميع الأديان الناس الى قصد الله وحده بالعبادة ، واذا كان من اختلاف فإنه يتمثل فى التشريعات التى تختلف من دين لآخر على حسب حال القوم الذين أرسل الرسول اليهم ، لذلك نرى القرآن يذكر لنا على لسان الأنبياء دعوتهم الناس الى عبادة الله والاستغفار والتوبة من اشراكهم مع الله غيره أو التوجه لغير الله بالعبادة ، وقد جاءت هذه الدعوة تبدأ بالتوحيد أولا ، وبعد ذلك يجىء الأمر بالاستغفار وبعده الأمر بالتوبة ، وقد اختلف أهل العلم فى المقصود من كل منهما ومن الجمع بينهمـا ، والراجح أن الجمع بينهما وبخاصة بعد الأمر بعبادة الله وحده لإفـــادة أن التوبة من الشرك ينبغى أن يشترك فيها جميع أعضاء الجسم وعلى رأسها اللسان والقلب فاللسان بالاستغفار والدعاء ، والقلب بالنـدم على ما مضى والعزم على فعل الطاعات والاشتغال بعمل الصالحات ونتبين فى الآيات التالية فى سورة هود ما ورد من ذلك فى دعوة كل من : محمد وهود وصالح وشعيب عليهم السلام .

١ – محمد (ﷺ) يدعو قومه الى الاستغفار والتوبة من الشرك :

« ألا تعبدوا الا الله اننى لكم منه ... على كل شىء قدير » .

هـود : ٣ – ٥

« اننى لكم منه نذير وبشير » أى أنذرتكم بعذاب الله ان كفـرتم وأبشركم بثوابه ان آمنتم .

« وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه .. » قيل : أن معناهما واحد وهو التوبة وثم بمعنى الواو ، وينسب ذلك للفـراء . وقيل الاستغفار

من الذنوب الماضية ، والتوبة اليه من الذنوب المقبلة ، وقيل : الاستغفار من الصغائر والتوبة من الكبائر ، وقيل غير ذلك (١) وما نراه ان الجمع بين الاستغفار والتوبة لأن المقام مقام الدعوة الى عبادة الله وحده وعدم الاشراك به والتوبة بكل السبل من الشرك به لذلك قرن بين الاستغفار والتوبة ٠

يمتعكم متاعا حسنا ٠٠٠ » ذلك من ثمرات الاستغفار والتوبة ٠ قيل : يمتعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم ، وقيل : يعمركم اذ أن الامتاع : الاطالة فى العمر وقيل : المتاع الحسن : ترك الخلق والاقبال على الحق ، وقيل : هو القناعة بالموجود وترك الحزن على المفقود (٢) ٠

« الى أجل مسمى » قيل : هو الموت ، وقيل يوم القيامة ، وقيل : دخول الجنة ، والأول أظهر لقوله تعالى فى هذه السورة (٣) ٠ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا « الآية وذلك ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى (٤) ٠

« ويؤت كل ذى فضل فضله » أى يوفى كل من عمل خيرا جزاء عمله ٠

« وان تولوا فانى أخاف عليكم ٠٠ « أى وان أعرضتم أو أن تعرضوا ولا تستجيبوا ، واليوم الكبير : هو يوم القيامة لما فيه من الأعمال وقد وصف بالعظم وبالثقل ٠

---

(١) وأن « استغفروا » يراد به ، الاستغفار من الشرك ، وتوبوا يراد به الرجوع اليه بالطاعة ، أو « استغفروا » أى توبوا ، ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ٠ الكشاف : ٢٥٨/٢ ٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٢/٩ ٠

(٣) سورة هود : ٥٣ ٠

(٤) السابق : ٥٠/١٠ ٠

« الى الله مرجعكم ... قدير » أى اليه تعالى وحده رجوعكم بالموت ثم البعث للجزاء لا يتخلف احد منكم .

« وهو على كل شىء قدير » وذلك تقرير وتاكيد لما سلف من ذكر اليوم وتعليل للخوف .

٢ – هود يدعو قومه « عاد » للتوحيد والاستغفار والتوبة ليعيشوا فى بحبوحة من العيش وفى قوة من الجسم :

« والى عاد اخاهم هودا ... ولا تتولوا مجرمين » .

هود : ٥٠ – ٥٢

« والى عاد اخاهم هودا » أى ارسلنا الى قوم عاد هودا عليه السلام ، وقيل له أخوهم . لانه منهم ، وكانت القبيلة تجمعهم كقولك : يا أخا تميم ، وقيل : انما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم مثلهم [١] . ويراد بذلك استمالة قوم الرسول (ﷺ) لأن قومه كانوا يستبعدون أن يكون عليه الصلاة والسلام رسولا اليهم من عند الله مع كونه واحدا من قبيلتهم ، فبين الله تعالى أن هودا كان واحدا من قوم « عاد » وأن صالحا كان من قوم « ثمود » لازالة هذا الاستبعاد .

« قال يا قوم اعبدوا الله ... ان أنتم الا مفترون » أى ما أنتم فى اتخاذكم الها غيره سبحانه الا كاذبون عليه أو كاذبون فى قولكم : ان هذه الأصنام تستحق العبادة وكيف لا يكون ذلك كذبا وافتراء وهى جمادات لاحس لها ولا ادراك ، والانسان هو الذى ركبها وصورها فكيف يليق بالانسان الذى صنعها أن يعبدها وأن يضع جبهته على التراب تعظيما لها .

---

(١) التفسير الكبير : ٩/١٨ .

« ويا قــوم لا أسالكم عليه أجرا ٠٠ افلا تعقلون » ذلك هو عين ما ذكره « نوح عليه السلام ، حيث ان الدعوة الى الله تعالى ان كانت مطهرة عن دنس الطمع قوى تاثيرها فى القلب ٠

« ويــاقــوم استغفروا ربــكم ٠٠٠ مجرمين »

« استغفروا ربكم ثـم توبوا اليه « أى اسالوا الله أن يغفر لكم ما تقــدم من شرككم ثـم توبوا من بعــده بالندم على مــا مضـــى وبالعزم على عــدم العودة ٠

« يرسل السماء عليكم مدرارا ٠٠ الى قوتكم » أى متى فعلتم ذلك فان الله يكثر نعمه عليكم ويقويكم على الانتفاع بها ، فلا تكمل السعادة فى كثرة النعم وحدها ، اذ لا تكمل الا بالجمع بينهما ، وقوله : « يرسل السماء » بمعنى انزال المطــر المدرار والنافع الذى لا ضرر فيــه ، والذى يكون سببا فى وفرة الرزق وزيادة النعــم ، وقـــوله : « ويزدكم قوة ٠٠٠ » أى قوة فى المــال والولد وصحة فى الأجسام ، وقيل : ان مزارعهم وبساتينهم كانت غاية فى الطيب والبهجة كما يدل عليه قوله سبحانه : « ارم ذات العماد ٠ التى لم يخلق مثلهـــا فـــى البلاد » (١) وكانوا فى غاية القوة كما يدل عليه قوله : « فاما عــاد فاستكبروا ٠٠ وقالوا من أشــد منا قوة ٠٠ (٢) » « الآية ، فوعــدهم هــود بانهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبه فــان الله يقويهم فى هذين الأمرين ويزيدهم فيها درجات كبيرة — ولا تتولــوا مجرمين » أى لا تعرضوا عنى وعما أدعوا اليه وانتم تصرون عــلى أجرامكم وأثمكم (٣) ٠

---

(١) سورة الفجر : ٧ ، ٨ ٠
(٢) سورة فصلت : ١٥ ٠
(٣) التفسير الكبير : ٩/١٨ ، ١٠

٣ ـ صالح عليه السلام يدعو قومه اهل ثمود لعبادة الله وحده والاشتغال بالاستغفار والتوبة شكرا لله على ما أولى من نعم :

« والى ثمود أخاهم صالحا .... قريب مجيب »

« هو انشاكم من الأرض » أى خلقكم من أبيكم آدم الذى خلق من الطين أو خلقكم من النطف التى تتكون من الدم الذى يتكون من الحيوان والنبات ، ويتكون الحيوان من النبات ، ويتكون النبات من الأرض .

« واستعمركم فيها » أى جعلكم عمارها بالزراعة والصناعة والتجارة والبناء وغير ذلك ، أو أطال أعماركم فيها .

« فاستغفروه ثم توبوا اليه » تفريع على ما تقدم من صنوف احسانه ، فان ما ذكر يدعو الى الاستغفار والتوبة .

« ان ربى قريب مجيب ، أى قريب الرحمة لقوله تعالى : « ان رحمة الله قريب من المحسنين » .

« مجيب » لمن دعاه وسأله (١) .

« ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا ... بل أنتم قوم تفتنون » النمل .

« ولقد أرسلنا .. صالحا » ثمود هى : عاد الأولى وصالح عليه السلام أخوهم فى النسب ، وبعد أن ذكر الله فى الآيات السابقة طرفا من قصتى موسى وداود وهما من بنى اسرائيل ذكر فى هذه الآية قصة « صالح » وهو من العرب يذكر بها قريشا والعرب ونبيهم على أن الانبياء السابقين من العرب كانوا يدعون الناس الى عبادة الله

---

(١) التفسير الكبير : ١٨/١٧ .

وحـده وذلك ليتاكدوا من انهم على ضلال وان أول عمـل للأنبيـــاء عربهم وعجمهم هو الدعوة الى عبادة الله وحده .

« فاذا هم فريقان يختصمون » انقسم الناس من دعوته فريقين ، فريق أمن بــه وفريق كفر ، وقيل : كان صالح وحده يمثـل فريـــق المؤمنين ، وقومه قبل الايمان بــه يمثلون فريق الكافرين ، وقد فصلت سورة الأعراف ما ذكره كل من فريق المؤمنين وفريق الكافرين فى قولـه تعالى : « قال المـلأ الذين استكبروا من قومــه .... الآيـــات واذا فجائية ، والعطف بالفاء لافادة أن انقسامهم الى فريقين من دعوته حدث بلا تاخير وعقب دعوته لهم الى عبادة الله ، وجاء « يختصمون » بالجمع مراعاة للمعنى ، لأن الفريقين جمع ويراد بالاختصام : دعوى كل فريق أن الحق معــه (١) .

« قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة » ذكرت وجوه فى تفسير ذلك الاستعـ)ال منها : لم تستعجلون بوقوع المعاصـــى قبـل الطاعة ؟ ومنها : أن صالحا عليه السلام لمـا توعد الذين كذبوه بالعذاب قالوا لــه « ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصـــادقين » على ســـبيل الاستهزاء ، وعند ذلك قال صالح » لم تستعجلون بالسيئة قبـل الحسنة « أى قـد أنعم الله عليكم برحمته وثوابه فلماذا تعدلون الى استعجال عذابه ومنها : أنهم كانوا يزعمون أن العقوبة التى يتوعدهم بها صـــالح ان وقعت بهم تابوا الى الله واستغفروا فيدفعها عنهم ، فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم .

« لولا تستغفرون الله .. » حض لهم على الاستغفار مما وقـع منهم من اشراك بالله واستعجال لعقوبته . رجاء الفوز برحمة الله غير جـازم بترتبها على الاستغفار زيادة فى الادب .

---

(١) البحر المحيط ٨٢/٧ ، والتفسير الكبير ٢٠٢/٢٤ .

« قالوا اطيرنا بك وبمن معك » ردوا عليه بغلظة وكان خطـــابه معهم بأدب واستمالة وتلطف ، أى تشاءمنا بك وبالذين آمنوا معك ، وكانوا أصيبوا بالقحط ، فجعلوا سبب قحطهم ذات صالح ومن آمن معه فـرد عليهم بقوله : « طائركم عند الله » أى أمركم فى الحقيقة الى الله فى قضائه وقـدره ان شاء رزقكم وان شاء حرمكم ، أو ما نزل بكم انما هو من الله عقوبة لكم على ما تقترفون من ذنوب .

« بل أنتم قوم تفتنون » أى تختبرون أو تعذبون ، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيرة .

وترشدنا الآيـات الى :

★ اتفاق الأنبياء والرسل فى دعوة الناس الى عبـادة الله وحده .

★ أن الانسان لا يمتحن ربه ولا يلزمه بانزال برهان أو دليـل معين ليتبع رسله ويؤمن بهم . حيث ينتفى الايمان بالغيب كركن هام من أركان الايمـان .

★ فضل الاستغفار فى تكفير الذنوب ونيل رحمة الله .

★ النهى عن الطيرة والتشاؤم لتعارضهما مع الايمـان باللـه والتوكل عليه ، وقـد كانت العرب أكثر طيرة ، وكانـت اذا ارادت سفرا نفرت طائرا ، فاذا طار جهة اليمين استبشروا وخــرجوا الى سفرهم ، واذا توجه الى الشمال تشاءموا وقعدوا عن السفر فنهى النبى (ﷺ) عن ذلك وقال : « أقـروا الطير على وكناتها » أى أعشاشها [1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢١٤/١٣ .

٤ - شعيب عليه السلام يدعو قومه مدين الى عبادة الله وحده وأن يكون تعاملهم بالعدل فى بيعهم وشرائهم وكيلهم ووزنهم ثـم يطلب منهم الاستغفار والتوبة لمـا وقع منهم :

« والى مدين أخاهم شعيبا ··· رحيم ودود » هود ·

« ولا تنقصوا المكيال والميزان » بعد أن دعاهم الى عبادة الله وحده أخـذ بعد ذلك فى دعوتهم الى الفضـائل ونهيهم عن الرذائـل انتقالا من الأهم للمهم · وكان قد شاع فيهم الجور فى تعاملهم وتجارتهم وبيعهم وشرائهم ، حيث يبيعون بالنقص ويشترون بالزيادة ·

« انى أراكم بخير » أى ان ما أنعم الله به عليـكم من الغنـى والسعة والرخاء يجعلكم فى غنى عن أكل الحرام بالانقاص فى الكيل والميزان عنـد البيع أو بزيادتهما عند الشراء ، فحافظوا على هـذه النعم ولا تزيلوها بما تفعلون ·

« وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » ذكرت أقوال فى تحـديد ذلك اليوم ووصف ذلك العذاب ، والأرجح انه يكون فى الآخرة يحيط بهم من جميع الجوانب كما تحيط الدائرة بما فى داخلها ، ووصف اليوم بالاحاطة أبلغ فى عموم العذاب وشموله من جعله وصفا للعذاب ، حيث يشمل اليوم العذاب وغيره (١) ·

« ويـا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ····· مفســدين · بالقسط : أى على وجه العدل بدون زيادة ولا نقصان ولا تبخسوا : أى لا تهضموا الناس حقوقهم ·

« ولا تعثوا فى الارض مفسدين » بالسرقة والبغى وقطع الطريق وغير ذلك أو بعـدم العدل فى البيع والشراء ·

---

(١) التفسير الكبير ٣٩/١٨ والكشاف ٢٨٥/٢ ·

ولا تكرار فى النهى عن انقاص الكيل والميزان ، والأمر بتوفيتهما ، والنهى عن بخس الناس حقوقهم حيث ان ذلك مما يستدعيه حال هؤلاء القوم الذين شاعت فيهم تلك العادة فاقتضى ذلك تأكيدا واهتماما فى توجيههم .

« بقية الله خير لكم » أى ان ما تحصلون عليه من مال حلال بدون تطفيف أو انقاص فى الكيل والوزن افضل ولو كان قليلا وذلك بشرط أن تكونوا مؤمنين .

« وما انا عليكم بحفيظ » أى ما أملك الا التبليغ ولا طاقة لى على منعكم من ذلك ، ولا منع عذاب الله من النزول بكم لمخالفتكم تعليماته .

« قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك ... الحليم الرشيد »

يراد بالصلاة اما الدين حيث تعد الصلاة أوضح مظاهر الدين أو الصلاة المعروفة وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة ويريدون بالاستفهام التهكم والسخرية به كما تقول لمجنون يطالع كتبا ويتكلم بكلام فاسد ، أهذا من مطالعة تلك الكتب وقد قصدوا بقولهم (« ان نترك ما يعبد آباؤنا » أنه لا يصح بحال أن نتخلى من معبودات آبائنا فجاء ذلك ردا منهم لدعوتهم لهم الى عبادة الله وحده ، كما قصدوا بقولهم : « أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » الرد عليه فى دعوته لهم الى العدل وعدم الظلم والجور فى كيلهم ووزنهم .

« انك لأنت الحليم الرشيد » أما أن يراد بذلك تهكمهم به وسخريتهم منه وذلك على سبيل الأستعارة التهكمية كما تقول لمن لا يفهم كلامك : أنت فى منتهى النباهة والذكاء ، واما أن يكون وصفهم بذلك على سبيل الحقيقة ، حيث كان معروفا لهم بالحكم والرشد

فيستبعدون أن يكون منه وقد عرف عنه ذلك انكار ما يعبدون وانكار طريقتهم فى التعامل ٠

« قال يـا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى » أى قـد أعطانى نعـم النبوة والعلم والهداية ٠

« ورزقنى منه رزقا حسنا » أى أنعم على بالمال الحـلال وقد جاءت تلك الاجابة من شعيب عليه السلام موافقة لما وجهوه اليـه من استبعادهم ما حدث منه من انكار لمعبوداتهم وتغيير لأسـلوب تعلمهم فقال لهم : أنه لا ينبغى ولا يليق بى وقـد أعطانى الله نعما روحيـة ومادية من النبـوة والهداية والمـال الحـلال أن أدع نصحكم وتوجيهكم الى ما فيه خيركم والا ما كنت أهـلا لهذه النعم ٠

« وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه » أى حتى تقبل دعوتى أياكم الى الخير لا يليق بى أن أخالف ما أدعوكم اليه من معـروف وما أنهاكم عنه من منـكر ٠

« ان أريد الا الاصلاح ما استطعت » أى ليس لى : غايـة ولا مقصد ممـا أدعوكم اليه إلا الأمل فى نزول الخير بكم ونشدان الصلاح لكم وذلك على قدر استطاعتى ، وفى الزمن الذى استطيع فيه توفـير الاصلاح بدون تقصير فى ذلك ٠

« وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب » ٠

اشتملت العبارة على ثلاث جمل ، كل جملة منها جاءت على سبيل القصر بالنفى والاستثناء فى (وما توفيقى ٠٠ وبالتقديم والتأخـير فى كل من « عليه توكلت » و « واليه أنيب » وهى مجموعة تفيـد اخلاص وتفويض وتسليم الأمر كله لمـن يعبد وحده ، كما تحمل هـذه العبارات فى ثناياها تهديدا ووعيدا لهم على عدم تنفيذ ما دعاهم اليه من عبـادة الله وحـده والعدل فى المعاملة ٠

« ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى ..... ببعيد »

يحذرهم ويخوفهم من معاداتهم لـه بانتقام الله كما انتقم من قوم نـوح بالغرق ، وقوم هود بالريح العقيم ، وقوم صالح بالرجفة ، وقوم لوط بالخسف ، وتخصيص قوم لوط بالوصف بعـدم البعـد زيـادة فى تحذيرهم حيث يعرفون جيدا ما وقع بقوم لوط اذ كانوا أقرب الأقوام اليهم مكانا وزمانـا .

« واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ... رحيم ودود »

طلب منه الاستغفار والتوبة من الشرك وما تلاه من ظلم وجـور مبشرا اياهم بأن الله واسع الرحمة بعباده التائبين ، ويفعل بهم ما يفعل البليغ المودة بمـن يوده من الاحسان والاجمال .

وترشـدنا الآيات السابقة الى : -

★ اتفاق كل الأديان السماوية فى جانب العقيدة وقصد الله وحـده بالعبادة ونبـذ الشرك .

★ أن توحيد الله عز وجل وعدم الاشراك به يعد أساس الفضائل وأن الدعوة الى الله أو أى دعـوة الى الخير ينبغى أن تبدأ بالاطمئنان الى سلامة العقيدة .

★ أن ظروف الانبياء والرسل متشابهة فى مواجهة المشـــركين ومقاساة المتاعب والمصاعب فى حملهم على اتباع دين الله .

★ أن رحمة الله واسعة وأنه يقبل توبة جميع التائبين ، ويتوب على الكفار والمشركين اذا آمنوا بـه وهجروا الشرك وندموا على عهدهم معـــه .

★ أن الاستغفار والتوبة يكفران الذنوب ويمحـوان الخطـــايا ويجلبان الخير وسعة الرزق والبركة لأصحابهم .

★ أن لله على عباده نعما لا تعد ولا تحصى ، ومن حقهم عليه أن يشكروه بالمداومة على الاستغفار والتوبة .

الفصل الثالث

استغفار الملائـكة عليهم السـلام

استغفار الملائكة

١ - دكر القرآن ان الملائكة تستغفر للمؤمنين من الناس فى قولـه تعـــالى :

« الذين يحملون العرش ومن حـوله يسبحون بحمـد ربهـــم ويؤمنون بـه ويستغفرون للذين امنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذيـن تابوا واتبعوا سـبيلك وقهم عـذاب الجحيم » (غافـر : ٧) ٠

٢ - وذكر أيضا انهم يستغفرون لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم وذلك فى قوله تعالى : « **تكاد السموات يتفطرون من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا ان الله هــو الغفور الرحيم** » ٠

(الشورى : ٥)

١ - استغفار الملائكة للمؤمنيـن :

« الذين يحملون العرش ومن حوله ... عذاب الجحيم » .

(غافـر : ٧)

« الذين يحملون العرش ومن حوله » أى الذين من حول العرش وهم ملائكة فى غاية الكثرة لا يعلم عددهم الا الله تعالى .

« يسبحون بحمد ربهم » أى ينزهونه تعالى عن كل مالا يليق بشـأنه الجليـل .

« ويؤمنون بـه ويستغفرون للذين آمنوا » فى وصـف الملائـكة بالايمان بالله « ويؤمنون بـه » مع وضوح ذلك وعدم الحاجة للتنبيه عليه اظهار لشرف الايمان وفضله والترغيب فيـه وذلك كالتعقيب على اعمال الخير بقوله : « ثـم كان من الذين أمنـوا [١] » . وفى قوله : « ويستغفرون للذين آمنوا » تنبيه على أن الاشتراك فى الايمان يجب أن يكون أدعى شىء الى النصيحة وتقديم الخـير وأن تفاوتت الاجناس وتباعدت الأماكن .

« ربنا وسعت كل شىء ... » أى يقولون ربنا ، والأصل : وسع كل شىء رحمتك وعلمك ، فأسـند الفعل الى صاحب الرحمة والعلم وهو الله تعالى مبالغة فى وصفه بهما كان ذاته تعـالى رحمة وعلم يسعان كل شـىء .

فان قيل : لماذا تستغفر الملائكة للمؤمنين وهـم تائبون صالحون موعودون بالمغفرة والله لا يخلف الميعاد ؟ أجيـب بأن ذلك بمنـزله الشفاعة ، وفائدته : زيادة الكرامة والثواب [٢] .

---

(١) سورة البلـد : ١٧ .
(٢) الكشاف ٤١٥/٣ .

٢ ـ استغفار الملائكة لجميع أهـل الأرض :

ذكر الله تعالى أن الملائكة تستغفر للمؤمنين بحكم ما بينهم وبين المؤمنين من صـلة الايمان على الرغم من التباعد بينهما فى الجنس وفى المكان ، ويقـرر سبحانه فى الآية التالية أن الملائكة تستغفر لجميع أهل الأرض مؤمنهم وكافرهم ، فيراد باستغفارهم للكفار سؤال الله الهداية لهم وإمهال عقوبتهم رجـاء توبتهم ٠

« تكاد السموات يتفطرون من فوقهن ٠٠٠ الرحيم » الشورى ٥ ٠

« تكاد السموات يتفطرون من فوقهن » أى يتشققن من عظمة الله وجـلاله ، أو من دعاء الشريك والولد له سبحانه ، ويراد بقوله : من فوقهـن « أى من فوق الأرضين لو كانت تعقل ، أو من فـوق الفـرق والجماعات الملحـدة ٠

« والملائكة يسبحون بحمد ربهم ، أى ينزهون عما لا يليق بـه ، وقيل : يتعجبون من جرأة المشركين ، فيراد من التسبيح التعجب ، وقـال ابن عباس رضى الله عنهما : تسبيحهم خضـوع لما يـرون من عظمة الله ـ ومعنى : « بحمد ربهم » أى : بأمره ٠ والملائكة المذكورون فى فى الآية هـم : حملة العرش ٠

« ويستغفرون لمن فى الأرض ٠٠٠٠ » قيل ان استغفارهم للمؤمنين فقط كما صرح بذلك فى قوله : » ٠٠٠٠ ويستغفرون للذين آمنوا ٠٠٠ « وقيل : وهو ما نرجحه : ان استغفارهم للمؤمنين من فوقهم وللكفار بسؤال الله الحلم والعفو وعدم التعجيل بعقوبتهم رجاء توبتهم (١) ٠

---

(١) الكشاف ٣/٤٦٠ وروح المعانى ٢٥/١١ والجامع لأحكام القرآن ١٦/٤ ٠

الفصل الرابع

استغفار المؤمنين بعضهم لبعض



الاستغفار للصحابة والمؤمنين

من الأعمال المحبوبة : دعــاء المسلم لأخيه وطلبه من الله المغفــرة لــه بظهر الغيب ، اذ يكون الدعاء والاستغفار أكثر قبــولا من الله وينــال الداعى والمستغفر عظيم الثواب ، ويوكل الله ملكين يدعوان له بمثــل مايدعو لصاحبه ، وفى الآيتين التاليتين يوضح لنا رب العزة أن من أدب المسلم وخلقه أن يسأل الله دائما المغفرة لنفسه ولجميع أخوانه المؤمنين الذين سـبقوه الى الدار الآخرة وأن يطهر قلبه من جميع الأمراض والعلــل ٠

قال تعالى : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قلبهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتــوا ويؤثــرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ٠ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين أمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » ٠

(الحشر : ٩ ، ١٠)

التحليــل اللغــوى والبيانى :

« والذين تبوأوا الدار والايمان » المراد بهم الأنصار والدار : المدينة المنورة ، والتبوؤ : التمكن والاستقرار أى الذين أقاموا بالمدينــة وتمكن الايمان من قلوبهم ٠

« من قبلهم » أى من قبل هجرة المهاجرين اليهم ، فالكلام عــلى حــذف مضاف ، ويدل ذلك على دخول الانصار فى دين الله وحبهــم لــه قبل أن يهاجر المهاجرون اليهم ٠

« يحبون من هاجر اليهم » حب المؤمن لاخيه المؤمن بما يترتب علي

ذلك الحب من احتفاء بهم واهتمام بجميع أمورهم وبمصالحهـــم وعـدم الضيق بهم ٠

« ولا يجدون فى صدورهم حاجة ممـا اوتوا » ومن دلائل ذلـك الحب : أن الانصار كانوا لا يحزنون ولا يتألمون لخير أو مال يحصل عليه المهاجرون ولا ينالون منه ، ولا يشتغلون بالتفكير وتتبع المهاجرين فى ذلك حيث لم يكن فى صدورهم الا حب الخير لاخوانهم المهاجرين ٠

وقد روى انه صلى الله عليه وسلم قسم اموال بنى النضير عـلى المهاجرين ولم يعط الانصار الا ثلاثة وقال لهم : أن شئتم قســـمتم ٠٠ للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هـذه الغنيمـــة ، وأن شئتم كانت لكم دياركم واموالكم ولم يتسم لكم شىء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من اموالهم وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة لا نشاركهم فيهـا فنزلت (١) ٠

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » ذلك هو المظهـر الثانى لحب الأنصار للمهاجرين وهو : تفضيلهم مصلحة وحاجة اخوانهـم المهاجرين على مصلحتهم وحاجتهم رغبة فى رضا الله وذلك هو الايثـار ، ومفعول الإيثار محذوف » أى يؤثرون على انفسهم بأموالهم ومنازلهم لا عن غنى ، بل مع احتياجهم اليها ، وذلك ما يدل عليه قوله : ولو كان بهـم خصاصة » أى ولو كان بهم فقر وحاجة اذ ان الخصاصة هى : الحاجة التى يختل بهـا الحـال ٠

وقد كان الأنصار يؤثرون اخوانهم الهاجرين على انفسهم فى جميع أمور المعيشة من : سـكن ومأكل وملبس وغيرها حتى ان من كان عنـده امرآتان كان يزوج واحدة منهما أخاه المهاجر بعد أن يطلقها أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابى هريرة قال : أنى رجـــل

(١) الكشاف : ٤/٨٤ ٠

رسول الله (ﷺ) فقال : يا رسول الله اصابنى الجهــد ، فارسـل الى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال صلى الله عليه وسلم : « الا رجـل يضيف هذا الرجل الليله رحمه الله ؟ فقام رجل من الانصـــار ، وفى رواية : فقال ابو طلحة : انا يا رسـول الله فذهب بــه الى اهــله فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله ، قالت : والله ما عندى الا قوت الصبية ، قال : اذا اراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فاطفىء السراج ونطوى الليلة (١) لضيف رسول الله ففعلت ، ثـم غدا الضيف على رســول الله (ﷺ) فقال : « لقـد عجب الله الليلة من فــلان وفلانة وانزل الله فيهمـــا : « ويؤثرون على أنفسهم .. الآية (٢) . واخرج الحـــاكم واين مـــردوية والبيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : اهدى لرجل من اصحاب رسول الله (ﷺ) رأس شاة فقال : ان اخى فلانا وعيالــه احــوج الى هذا منى فبعث به اليه فلم يزل يبعث به واحد الى آخـــر حتى تداولـه أهــل سبعة ابيات حتى رجع الى الاول فنزلت (٣) .

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هــم المفلحون » أى من يحفظه الله وينقذه من شح نفسه فقد فــاز بكل مطلوب ونجا من كل مكروه .

والشح : أشد من البخل ، اذ البخل : ضـــن صاحبه عن الانفــاق ممــا فى يده أما الشح : فهو ضن عن الانفاق مما فى يده ومما ينفقه غيره حيث يحزن ويغتم وتتقبض نفسه لما يرى من جــود وبــذل وانفـــاق لحرصها على المنع ، ويمتد الشح بصاحبه الى اكل الحرام والظلم والحصول على مال الغير (٤) .

---

(١) أى ننــام على الطوى جوعا .
(٢) روح المعانى : ٢٨/٥٢ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) روح المعانى ٢٨/٥٣ .

وافراد الفعل « يوق » مراعاة للفظ « من » ومجىء اسم الاشارة « أولئك » جمعا مراعاة لمعناها مع دلالة اسم الاشارة على علو قدرهم وارتفاع شأنهم ٠

والآية الكريمة تنفر من الشح وتحذر منه ، وقد وردت أخبار كثيرة فى ذمه اخرج الترمذى وابو يعلى وابن مردوية عن أنس قال (ﷺ) : (ما محق الاسلام محق الشح شىء قط) وأخرج ابن ابى شيبة والنسائى والبيهقى والحاكم عن ابى هريرة عنه (ﷺ) : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان نار جهنم فى جوف عبد أبدا ولا يجتمع الايمان والشح فى قلب عبد أبدا » وأخرج ابو داود والترمذى ، والبخارى فى الأدب وغيرهم عن ابى سعيد الخدرى عنه (ﷺ) : خصلتان فى الأدب وغيرهم عن ابى سعيد الخدرى عنه (ﷺ) : « خصلتان لا تجتمعان فى جوف مسلم : البخل وسوء الخلق » ٠ واخرج ابن « خلق الله تعالى جنة عدن وغرس اشجارها وقيده ثم قال لها : انطقى فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل ، ثم تلا رسول الله (ﷺ) « ومن يوق شح نفسه ٠٠ فأولئك هم المفلحون ، « وأخرج احمد والبخارى ومسلم والبيهقى عن جابر بن عبدالله ان رسول الله (ﷺ) قال : « أتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح اهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١) ٠

« والذين جاءوا من بعدهم » أى من بعد المهاجرين والانصار وهم التابعون ومن أتى بعدهم من المسلمين الى قيام الساعة ، وقيل : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون والأنصار والذين جاؤا من بعدهم فاجتهد الا تخرج من هذه المنازل ٠

---

(١) السابق ٠

« يقولون ربنا اغفر لنـا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان » أمروا أن يستغفروا لمـن سبق هذه الامـة من مؤمنى أهل الكتاب أو يستغفروا للسابقين الاولين من المهاجرين والأنصار (١) أو أمر المسـلم أن يسـأل الله المغفرة لجميع اخوانه المسلمين الذين سبقوه الى الدار الآخرة دعاء لهم بظهر الغيب وذلك ما نميل اليه لاتفاقه مع نص الآية .

« ولا تجعل فى قلوبنا غـلا للذين امنوا » أى حقـدا ..

« ربنا انك رؤوف رحيم » أى مبالغ فى الرافة والرحمة ، وفى الآية كما ذكرنا حث على استغفار المؤمنين لبعضهم احياء وامواتا ، وحث على الدعـاء لصحابة رسول الله (ﷺ) واجلالهم والحذر من الاساءة اليهم بالتهوين والاقلال من قدرهم .

اخرج ابن مردوية عن ابن عمر انه سمع رجلا يتناول بعض المهاجرين فدعاه فقـرأ عليه : « للفقراء المهاجرين .... « الآية ثـم قال : هؤلاء المهاجرون افمنهم أنت ؟ قال : لا ، ثم قرأ عليـه : « والذين تبوؤا الدار والايمان .. « الآية ثم قال : هؤلاء الأنصار أفمنهم أنت ؟ : قـال : لا ثم قـرأ عليه : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ... » .

الآية ، ثم قال : افمن هؤلاء أنت ؟ قال : أرجو قال : لا والله ليس من هؤلاء من سب هؤلاء .

كما تدل الآية على ذم الغـل لأحد من المؤمنين ، والدعاء بتنقية القلب منه أخرج الترمذى والنسائى عن أنس ان النبى (ﷺ) قـال فى ايام ثلاثة : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، وفى كل مـرة يخرج عليهم رجل من الانصار ، فبات معه عبد الله بن عمرو بن العاص

---

(١) القرطبى : ١٨/٣٣ .

ثلاث ليـال يستطلع أمره وليقف على سر لذلك ، فلم ير له كثيرا فسأله عما يصنع حتى استحق تلك المكانة فقال لـه : ما هو الا ما رأيـت غـير انى لا أجـد في نفسى غلا لأحد من المسلمين ولا أحسده على خير اعطاه الله أيـاه فقال له عبد الله : هذه التى بلغت بك وهى التى لا تطيق ، وفـى رواية أنـه قال : لو كانت لى الدنيا فأخذت منى لم أحزن عليها ولو أعطيتها لم أفرح بها ، وابيت وليس فى قلبى غـل على أحـد ، فقال عبد الله : لكنى أقوم الليل واصوم النهار ولو وهبت لى شاة لفرحت بهـا ولو ذهبت لحزنت عليها والله لقد فضلك الله علينا فضلا مبينا ٠

استـغفار المتقيـن

« ان المتقين فى جنات وعيون ٠٠٠ والمحروم »

الذاريات : ١٥ - ١٩

عرفنا أن الاستغفار من معانيه : أنه من وسائل التوبة الى الله تعالى والرجوع إليه بسؤاله سترا لذنوب ومحوها - وأنـه من طرق ذكر العبد ربه حمدا له وشكرا على ما أولى من نعـم ، وأنه من سبل تواضع العبـد لربـه وعـدم اغتراره بعبادته وطاعته لله تعالى وذلك كما ورد فى هذه الآيات من استغفار المتقين فى وقت السحر بعد قضائهم الليل سـهرا واجتهادا فى عبادة الله تعـالى ٠

« أن المتقين فى جنات وعيون » بدأ تعالى بذكر ما أعـده لهم من جـزاء عظيم لا يدرك وصفه ، ثم شرع بعد ذلك فى تفصيل وجوه العبادة التى كانوا بها أهلا لذلك الجـزاء ٠

« اخذين ما آتاهم ربهم » أى كانوا يتلقون كل ما أمرهم الله به وما نهاهم عنه برضا وقبول وحسن تنفيذ ٠

« انهم كانوا قبل ذلك محسنين » وكانوا فى تنفيذهم لأعمـــال الخير وتأديتهم للفرائض والنوافل يأتون بها على أكمل وأفضل وجه .

« كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » أى ما كانوا يستريحون من تعبهم وعنائهم فى النهار الا وقتا قليلا بالليل حيث يقضـــون معظم ساعات الليل فى العبادة والذكر والاستغفار . وتفيد العبارة المبالغة فى اجتهادهم فى طاعة الله وذلك فى التعبير بالفعـــل « يهجعـون » الــذى يعنى القليل من النوم بالليل ، وقوله : « قليلا » وقوله : « من الليل » لأن الليل وقت النوم والراحة ، وزيادة « ما » التى تؤكد مضمون القلة وتحققها . وتقديم لفظ « قليلا » الذى يفيد تقديمـــه وذكـــره قبــل « يهجعون » الاشارة الى قلة النوم وليس الى النوم .

« وبالأسحار هم يستغفرون » أى مع قلة نومهـــم وكثرة تهجدهـــم يداومون على الاستغفار وكأنهم كانوا فيما مضى من الليل يشـتغلون بفعل الذنوب ، وقيل : ان استغفارهم « لشعورهم بالتقصير فيما قدموا من طاعة وكانوا يتمنون أن يقدموا أكثر مما قدموا على عادة الكـــرام الذين يستقلون دائما ما يقومون به ويشعرون دائما بالتقصـــير ، أو يستغفرون من نومهم القليل .

وفى ذكر الضمير « هم » متبوعا بالفعل « يستغفرون » اشــارة الى أنهم لمداومتهم على الاستغفار واجتهادهم فيه أصـــبحوا كالمختصين بـــه .

ويفيد حرف الجر « الباء » وايثاره على « الفاء » « وبالأسحار » بدلا من « وفى الأسحار » الدلالة على أن استغفارهم متصل بالأسحار ومقترن بها ويبدأ مع أول جزء من أجزاء السحر بخلاف مالو قال : « وفى الأسحار » ، كما يشير ذلك الى أنهم لا يستريحون من العبادة ،

فبالليل لا يهجعون ، ومع أول جزء من السحر يستغفرون ، بدون أن يكون سبق لهم ذنب يستغفرون منه ٠

كما تدلنا الآية الكريمة على خشيتهم الزائـــدة من الله وعـــدم الاغترار بعبادتهم ٠

« وفى أموالهم حق معلوم ، للســائل والمحروم » أى ويخرجون من أموالهم تقربا الى الله عز وجل قدرا معلوما ألزموا أنفسهم به خلاف الزكاة المفروضة يعطونه لمن يستحقه من السائل ، والمحروم الذى لايسأل تعففا وحياء من ذل السؤال والذى لا يلتفت اليه كثير من الناس ويحسبهم الجهال أغنياء من التعفف كما أشار الله فى قوله :

« للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يســـتطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا وما تنفقوا من خير فـــان الله به عليم »[١] وكما ورد فى قوله (ﷺ) فيما أخرجه ابن جرير وابن حبان وبن مردويه من حديث أبى هريرة :

« ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ، والأكلة والاكلتان ، قيل : فمن المسكين ؟ قال : الذى ليس له مـــا يغنيه ولا يعلم مكانــه فيتصدق عليــه » ٠

وقد أضاف الله المال اليهم فى هذه الآية بقوله : « وفى أموالهم ٠٠»

بينما ذكر فى آيات أخرى ان المال مال الله فى قوله : « وأنفقوا

---

(١) سورة البقرة : ٢٧٣

مما رزقكم الله » وقوله : ومما رزقناهم ينفقون » لأن الأمر بالانفاق فى هذين الموضعين وما شابههما للحث والترغيب فذكر معه ما يدفع على الحث ويزيل المانع بقوله :

« هو رزق الله » « والله يرزقكم » فلا تخافوا الفقر ، وفى الآية التى معنا يمدحهم على مافعلوا فلم يكن الى الحرص حاجة(١) .

---

(١) روح المعانى : ٢٨/٧ والتفسير الكبير ٢٨/٢٠٢

الفصل الخامس

حقيقـة الاستغفار من ذنوب العبـاد

حقيقة الاستغفار من ذنوب العبـــاد

نعرف ان ذنوب العباد فى حق الله تعالى تكفر بالاستغفار المقترن بالتوبة ، أما الذنوب التى تتعلق بالعباد فلا يكتفى فى التوبة ، منها باستغفار الله تعالى بل يضاف الى ذلك رد الحقوق لاصحابها أو التماس العفو والبراءة منهم ، وقد وردت مجموعة من الآيات تشـــتمل على الاستغفار بهذا المعنى ، من ذلك قوله تعالى :

« وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهـــم اذ ظلموا انفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرســـول لوجدوا الله توابا رحيما » النساء : ٦٤ ، وقوله تعالى : **يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين »** .

(يوسف : ٢٩)

وقوهله تعالى : **« قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى انه هو الغفور الرحيم »** .

(يوسف : ٩٧ ، ٩٨)

وقوله تعالى : **« انما المؤمنون الذين امنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على امر جامع لم يذهبوا حتى يســـتاذنوه ان الذين يستاذنونك اولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استاذنــوك لبعض شانهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله أن الله غفور رحيم »**

(النور : ٦٢)

« وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله .. توابا رحيما »

(النساء : ٦٤)

وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله « اى ان كل الرسل الذين أرسلهم الله كانت طاعة قومهم لهم بسبب اذن الله فى طاعتهم والهامه

المبعوث اليهم طاعة الرسل حيث ان طاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله مصداقا لقوله : من يطع الرسول فقد اطاع الله « ، أو جاءت طاعة الناس للرسلبتوفيقهم لها وتيسيرها عليهم(١) .

« ولو انهم اذ ظلمـوا أنفســهم » أى بسخطهم لحكمك فيهـم واعتراضهم على قضائك بينهم ، أو بتحاكمهم الى الطاغوت ، أو بجميع ماصدر عنهم من المعاصى(٢) .

« جاؤوك فاستغفروا لله واستغفر لهم الرسول » أى تابوا الى الله واعتذروا اليه ، وشفعت لهم عند الله فى قبول استغفارهم بعد رضائك عنهم(٣) .

« لو جدوا الله توابا ، أى لعلموه توابـا ، أى لتاب عليهـم . ولم يقل : «واستغفرت لهم ، وعـدل عنه الى الالتفـات الى الغيبة « واستغفر لهم الرسول » تفخيما لشـأن الرسـول (ﷺ) وتعظيما لاستغفاره ، وتنبيها على أن شفاعته من الله بمكان(٤) .

وجمع بين استغفارهم لله واستغفار الرسول (ﷺ) لهـم ليوفوا التوبة حقها ، فاســتغفارهم الله لخروجهم على حكمه بالتحاكم الى الطاغوت ، واستغفار الرسول (ﷺ) لهم ليذهب ما بقلبه من الغم وما فى نفسه من الحزن ولتأتى شفاعته لهـم عند الله أكثر قبولا فتستجمع التوبة جهات القبول(٥) .

---

(١) الكشاف ٥٣٨/١ .
(٢) البحر المحيط ٢٨٢/٣ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الكشاف ٥٣٨/١ .
(٥) بتصرف من التفسير الكبير ١٦٢/١٠ .

وتفيدنا الآية : ان الذنوب فى حق العبـــاد لاتتم التوبة منها الا بالرجوع إلى الله واسترضاء العبد ، وأن الاستشفاع بسيدنا رسول الله (ﷺ) والتوسل به ضمان لقبول التوبة ٠

« يوسف أعرض عن هذا ٠٠٠٠ من الخاطئين »

(يوسف : ٢٩)

لما راودت زوجة العزيز يوســـف عن نفسه وامتنع بحفظ الله لــه من اجابة طلبها على الرغم من وقوعه تحت امرتها وليس له الا أن يجيب ويلبى ، وامام اصرارها على تحقيق رغبتهـــا لم يجد بدا من الفرار من بين يديها لكنها اسرعت تجرى من ورائه لتجذبه من قفـــاه فى اللحظة التى يدخل فيها زوجها مع ابن عم لها ، فاسرعت مع هول المفاجاة تنفى الاثم عن نفسها وتتهم يوسف عليه السلام بإرادة السـوء بها طالبة معاقبته بالسجن أو بغيره من سبل العقاب فلم يكن أمــــام سيدنا يوسف عليه السلام الا أن يذكر ماوقع فيظهر الله براءته أوضـح ما تكون على لسان ابن عمها الذى انطلق يحسم الموقف بأن قد القميص ان كان من الأمام كانت صادقة وان كان من الخلف كانت كاذبة ، فلما وضح أن قطع القميص كان من الخلف تبين كذبها وعنفها على ذلك بأن ذلك من كيدا لنساء الذى يفوق كل كيد ، وطلب من يوسف عليه السلام الا يذكر ذلك الأمر لأحد وطلب منهـــا أن تطلب من زوجها الصـــفح والمغفرة عما وقع منها بالاستغفار وكان قليل الغيرة ، فالاستغفار اذا بمعنى طلب العفو والصـــفح من الزوج ، وقيل : انه يراد بــه : طلب المغفرة من الله اذ كانوا مع عبادتهم للاوثان يعترفون بوجود الصانع وأن للذنوب عاقبة سوء اذا لم يغفرها الله ، ودليل ذلك قول يوســـف عليه السلام :

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار »(١) .

وقد حذف حرف النداء من « يوسف » أى « يايوســـف » حيث ان المقام مقام سرعة وايجاز مع هول الموقف وبشاعة المنظر « انك كنت من الخاطئين » أى من المتعمدين للذنب ، يقال : خطىء فهو خاطىء : اذا تعمد الخطأ ، واخطأ فهو مخطىء اذا أذنب من غير عمد .

- ٣ -

« قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا .. هو الغفور الرحيم »
(يوسف : ٩٧ ، ٩٨)

بعد ان تم التعارف بين يوسف واخوته فى مصر طلب يوسف من اخوته العودة الى بلاد الشام لاحضار ابيهم واعطاهم قميصـــه ليكون دليلا عليه ، ومنذ تلك اللحظة (احس يعقوب عليه السلام وبالهام الله له ان يوسف مايزال حيا وأنه سوف يلتقى به وأخبر ذلك الالهام لمـن حوله من أولاد أبنائه فأنكروا عليه ماذكر مؤكدين له أن ذلك تفكير غريب مبعثه فرط حبه ليوسف وكانوا يعتقدون أنه مات ولم يعد حيا ، الى أن حضر « يهوذا » بقميص والقاه على وجه ابيه ليرتد اليه بصره الذى كان قد حجب حزنا على يوسف ، وحمد يعقوب الله على نعمته وذكر ابناءه بما كان معه من تفويض أمره لله عندما جـاؤه بخبر أكل الذئب له فى قوله : « والله المستعان على ماتصـــفون » ، وعندئذ تندم ابناء يعقوب على اثمهم الكبير فى حق أبيهم وحق أخيهم فسألوه ان يصفح عنهم وأن يسأل الله لهم المغفرة فوعدهم بتحقيق رجائهم فى افضـــل أوقات يستجاب فيها الدعاء . والاستغفار وهو وقت السحر .

---

(١) سورة يوسف : ٣٩ .

التحليل اللغوى والبيانى :

« قالوا يا أبانا استغفر لنـا ... »

فى الكلام حذف تقديره : فلما رجعوا من مصـــر قالوا : يا أبانا والحذف مطلوب يقتضيه المقام وهو الاسراع بتقديم البشارة ليعقوب . وانما سألوه المغفرة لأنهم ادخلوا عليه من ألم الحزن مالا يسقط اثمـه الا بـالعفو عنه ، وهذا الحكم ثابت فيمن اذى مسلما فى نفسه وماله أو غير ذلك ظالما له ، فانه يجب عليه أن يتحلـــل منه ويخبره بالمظلمة وقدرها ، ففى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لايكون دينار - ولا درهم ، ان كان له عمل صالح أخـذ منه بقدر مظلمته ، وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » قال : « قال : سوف استغفر لكم ربى » أفادت « سوف » انـه آخر دعاءه الى وقت لاحق ، قال ابن عباس : آخر دعاءه الى السحر - وقد روى الترمذى عن ابن عباس انه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ اذ جـــاءه على بن أبى طالب فقال : يأبى أنت وأمى - تفلت هذا القرآن من صدرى ، فما اجدنى أقدر عليه ، فقال له رسول الله ﷺ : « أفلا اعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفـــع بهن من علمته ويثبت ماتعلمت فى صدرك ، قال أجل يارسول الله : فعلمنى قال : اذا كان ليلة الجمعة فان استطعت ان تقوم فى ثلث الليل الآخر فانها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، وقد قال أخى يعقوب لبنيه : « سوف استغفر لكم ربى » يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة[1] .

● ونأخذ مما ســـبق :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٢/٩ .

* أن ذنوب العباد فى حق بعضهم يضاف فيها الى التوبة الى الله واستغفاره ابراء الذمة ممن وقع فيه الذنب .

* ان من نعم الله على عباده ان جعل لهم أوقات معينة تستجاب فيها الدعوات والاستغفار فعلى العباد ان يتحينوا هذه الفرص ويغتنموها فى العبادة والدعاء والتوبة والاستغفار .

* ان دعاء واستغفار الصالحين أكثر قبولا عند الله تعالى ، يدل على ذلك طلب ابناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر الله لهم .

(٤)

« انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ... ان الله غفور رحيم »

(النور : ٦٢)

من الآداب الاجتماعية التى اشتملت عليها سورة النور : المحافظة على هيبة وكيان جماعة المسلمين وتوفير كل السبل التى تجعل الجماعة الاسلامية مؤثرة وفاعلة ومن ذلك توثيق العلاقات بين المسلمين وائمتهم وقادتهم ورؤسائهم وارسائها على دعائم من التقدير والاحترام فى اجتماعاتهم ومجالسهم التى يلتقون فيها للتشاور وتبادل الرأى حول مابهم المسلمين فى سلمهم أو حربهم مع العدو ، وأن تكون مصلحة المسلمين مقدمة على كل المصالح الشخصية ، ولذلك يأمر الله الرسول ﷺ بالاستغفار لمن استأذنوا من مجلسه ولو بعذر تنبيها على أن المصلحة العامة للمسلمين مقدمة على كل المصالح الفردية .

روى أن هذه الآية نزلت فى حفر الخندق حين جاءت قريش بقيادة أبى سفيان ، وغطفان بقيادة عيينة بن حصن ، فضرب النبى ﷺ الخندق حول المدينة ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة ، فكان المنافقون يتسللون لو اذا من العمل ويعتذرون باعذار كاذبة .

التحليل اللغوى والبيانى :

انما المؤمنون ··· ورسوله » اى لايتم ولايكمل ايمان من آمن بالله ورسوله الا باحترامه الكامل لمجلس رسول الله ﷺ : حضورا وانصاتا ومشاركة ، وبدون تقديم أدنى اساءة للمجلس من بدايته إلى نهايته ·

واختلف فى الأمر الجامعماهو ؟ فقيل : كل أمر يجمع الامام فيه الناس لمصلحة المسلمين كاقامة سنة ، أو للتجهيز لمقاتلة عدو فلا ينصرف أحد لعذر الا باذن الرسول ﷺ اذ ربما كان الرسول (ﷺ)أو رئيس الجماعة فى حاجة اليه ، ولاشك ان التفاف الجماعة حول رئيسها مما يقوى ظهره ويشد من ازره حيث ينتفع بارائهم ويستعين بتجاربهم وخبراتهم فى الخروج بالقرار السليم الذى يكون فيه مصلحة المسلمين[١] ·

وقيل : الأمر الجامع يراد به : كل أمر هام يجب اجتماع المسلمين فى شأنه كالجمعة والاعياد والحروب وغيرها من الأمور الداعية الى الاجتماع لغرض من الاغراض ، وقيل : كل صلاة فيها خطبة كالجمعة والعيدين والاستسقاء والأرجح هو الأول ، وهو كل ما يهم أمر المسلمين ·

ووصف الأمر بالجمع مع أنه سبب له للمبالغة ، وذلك من المجاز العقلى · اذ ان فى الاستئذان اساءة اليه فانفضاضهم عنه مما يكسر من خاطره ويضعف جانبه ، واساءة الى الله تعالى الذى اجتمعوا لنصرة دينه ، فكان استغفار الرسول (ﷺ لهم ايذانا بصفحه وتجاوزه عن الاساءة فى حقه ·

« واستغفر لهم الله » طلب الله من الرسول (ﷺ أن يستغفر للمستأذنين دليل على أن الأفضل والأولى للمستأذنين الا يحدثوا أنفسهم بالاستئذان ولاشك فيه انه كان لعذر قوى فان فيه تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة ومصلحة الفرد على مصلحة المجموع ·

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٢٠/١٢ ·

وقد ذكر بعض العلماء وهو ما نميل اليه ان غير الرسول **صلى الله عليه وسلم** من الائمة يأخذ ذلك الحكم محافظة على وحدة الجماعة الاسلامية ووصولا بها الى كل ما يحقق الخير والنفع للمسلمين .

وقد اشتملت الآية على أمور كثيرة فى الدلالة على أهمية الاستئذان كمظهر من مظاهر احترام المسلمين لمجلسهم واعمالهم ورؤسائهم : اذ جعل الوصف الثالث للمؤمنين بعد ايمانهم بالله ورسوله ، وصدر الجملة » بانما التى تفيد الحصر ، وتعريف الطرفين فى « المؤمنون الذين ... » ، وتعقيب ذلك بما يزيد الأمر (١) قوة وتشديدا بقوله : « ان الذين يستأذنونك أولئك .. » .

كما يدل على أهمية الاذن كمظهر من مظاهر احترام المسلمين لمجلسهم ورؤسائهم ان الله سبحانه جعل الاستئذان للذهاب عن الرسول (ﷺ) ذنبا محتاجا للاستغفار فضلا عن الذهاب بدون اذن ، ورتب الاذن على الاستئذان لبعض شانهم لا على الاستئذان مطلقا ولا على الاستئذان لأى امر مهما كان او غير مهم ، وذلك مع تعليق الاذن بالمشيئة (٢) .

وتفيدنا الآية السابقة أمورا منها :

★ أهمية الشورى والاجتماع فى مناقشة قضايا المسلمين .
★ ارساء دعائم الحب والادب بين المسلمين وقادتهم .
★ مصلحة الاسلام والمسلمين أهم من مصالح الافراد .
★ مسئولية الرئيس والامام عن اتباعه امام الله وامام الناس .
★ ذنوب العباد لا تكفر بالتوبة الى الله وحدها .
★ حسن توسل المسلمين واستشفاعهم بالرسول (ﷺ) .

---

(١) الكشاف : ٧٨/٣ .
(٢) روح المعانى : ٢٢٣/١٨ .

الفصل السادس

المشركون والمنافقــون بين
الاستغفار والمغفرة

المشركون والمنافقون بين الاستغفار والمغفرة

بتتبع الآيات التى تتحـــدث عن المغفرة والاستغفار للمشـــــرمين والمنافقين رأينا أنها تدور حـول المواقف التالية :

١ ـ حرمان الكفار من مغفرة الله اذا ماتوا على كفرهم بالله ورسـوله وذلك فى قوله تعالى : « **ان الذين كفروا وصدوا عن سـبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ٠**

« (سورة محمد : ٣٥) ٠

٢ ـ مغفرة الله جميع الذنوب وعلى راسها الشرك مع الايمان والتوبة وذلك فى قوله سبحانه : « **قل يا عبادى الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هـــو الغفور الرحيم ٠٠ وأنيبوا الى ربكم وأسلموا لـه من قبل ان ياتيكم العذاب ثـم لا تنصرون** » ٠

(سورة الزمر : ٥٢ ، ٥٣)

٣ ـ اذا آمن الكافر بالله ورسوله وتاب من ذنوبه يغفر الله لـه مــا ارتكبه قبل ان يؤمن بالله ، وذلك فى قوله تعالى : « **قل للذيـن كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين** » ٠

(سورة الانفال : ٢٨)

٤ ـ استغفار المشركين من ذنوبهم ينبغى أن يكون استغفارا مقترنـا بالتوبة وذلا فى قوله تعـالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربـى وربكم انـه من يشرك بالله فقد حـرم الله عليه الجنـة ومأواه النار وما للظالمين من انصار ٠ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثـة وما من الـه إلا إله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن**

الذين كفروا منهم عذاب اليم ٠ أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ٠

٥ - دعوة المشركين الى الاستغفار المقترن بالتوبة بعد الايمان بالله فى قوله تعالى : « **حـم ٠ تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت** آياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون ٠ بشيرا ونذيرا فأعرض اكثرهم **فهم لا يسمعون ٠ وقالوا ٠ قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى اذاننا وقـر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون ٠ قـل إنما انا بشر مثلكم** يوحى الى انما الهكم اله واحـد فاسـتقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤمنون الزكاة وهـــم بالاخرة هم كافرون ٠ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم اجر غير ممنون » ٠

(سورة فصلت : ١ - ٨)

٦ - عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا من الأقارب ، وقد اسـتغفر سيدنا ابراهيم عليه السلام لابيه لما وعده أن يؤمن بالله فلما مات على الشرك تبرأ منه وذلك فى قوله تعـالى : « **ما كان للنبـى والذين امنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم ٠ وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعده وعدها اياه فلما تبين لـه انه عـدو لله تبرأ منـه ان ابراهيم لأواه حليم** » ٠

(سورة التوبة : ١١٣ - ١١٤)

وقد ذكر القرآن استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيـه أو لأبويـه بصيغ متعددة هى قوله تعالى : « **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** » ابراهيم : ٤١ - وقولـه سبحانه : « **قـــال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بـى حفيا** » مريـــم : ٤٧ ،

وفى قوله سبحانه : « **واغفر لابى انه كان من الضالين** » الشعراء : ٨٧ ، وفى قوله تعالى « **رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا** » نوح : ٢٨ .

وقد دعانا الحق سبحانه وتعالى الى الاقتداء بسيدنا ابراهيم عليه السلام فى التبرؤ من المشركين ، وترك الاقتداء به فى استغفاره لأبيه حيث كان ذلك لظرف معين ، وذلك فى قوله تعالى : « **قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد . عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم** ».

(سورة الممتحنة : ٤ - ٧)

٧ - رد استغفار المنافقين وعدم قبوله لصدوره من السنتهم فقط - بدون مشاركة للقلب فيه وذلك فى قوله تعالى : « **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا اموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان اراد بكم ضرا او أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيرا ولله ملك السموات**

والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما » .

(سورة الفتح : ١١ - ١٤)

٨ - عدم قبول الاستغفار للمنافقين وذلك فى قوله تعالى : « **استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين** » : (التوبة : ٨٠) ، وفى قوله تعالى : « **واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم استغفرت لهم ام لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** » .

(المنافقون : ٥ - ٧)

١ - حرمان الكافرين من مغفرة الله اذا ماتوا على كفرهم :

« ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ... فلن يغفر الله لهم »
محمد : ٣٤

ذكر الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآية : أن الله لا يغفر الشرك ، وما دون ذلك يغفره ان شاء حتى لا يظن ظان ان اعمالهم وان بطلت الا أن الله يغفر لهم بفضله ، وان لم يغفر لهم بعملهم (١) .

٢ - مغفرة الله للمشركين اذا تابوا :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا .. ثم لا تنصرون » الزمر : ٥٢ ، ٥٣ . ذكر الحق تبارك وتعالى فى بعض الآيات انه يغفر جميع

---

(١) التفسير الكبير ٧٢/٢٨ .

الذنوب صغيرها وكبيرها لعباده التائبين ماداموا مؤمنين بالله ولايشركون به شيئا مصداقا لقوله سبحانه : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .... » الآية (١) . ويقرر سبحانه فى الآية السابقة انه يغفر جميع الذنوب أى بما فيها الشرك ، وبذلك تصير المغفرة للمشركين بالتوبة من الشرك والايمان بالله اعتمادا على ما ذكره القرآن فى الموطن السابق .

وقد تعددت الروايات فى سبب نزول « قل يا عبادى الذين أسرفوا .. الآية .

منها ما رواه البخارى عن سعيد بن جبير عن بن عباس قال : كان قوم من المشركين قتلوا فاكثروا ، وزنوا فاكثروا ، فقالوا للنبى (ﷺ) أو بعثوا اليه : ان ما تدعو اليه لحسن ، أو تخبرنا ان لنا توبة ؟ فانزل الله عز وجل هذه الآية - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نزلت فى أهل مكة قالوا : يزعم محمد أن من عبد الأوثان وقتل النفس التى حرم الله لم يغفر له ، وكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله الها آخر وقتلنا النفس التى حرم الله فانزل الله هذه الآية(٢) .

التحليل اللغوى والبيانى :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا .. » فى نداء الله لعباده باضافتهم اليه تشريف ورفعة لقدرهم .

« الذين اسرفوا على انفسهم » أى جنوا عليها بالاسراف فى المعاصى والغلو فيها ، اذ الاسراف كما ذكر الراغب معناه : تجاوز الحد فى كل ما يفعله الانسان .

---

(١) سورة النساء ٤٧ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٦٨/١٥ .

« لا تقنطوا من رحمة الله » النهى عن القنوط يقتضى الأمـر بالرجاء ، وفى اضافة الرحمة الى الله أى الى الاسم الظاهر بـدلا من التكلم « من رحمتى » دلالة على سـعة الرحمة .

وفى الاظهار فى مقام الاضمار مع التاكيد بأن وتكرار التاكيـد بها فى قوله : « ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم » (١) وللتاكيد بضمير الفصل مبالغة فى وعده سبحانه بالمغفرة .

« وأنيبوا الى ربكم » أى توبوا اليه .

« واسلموا له » (أى أخلصوا له العمل ، وقـد جاء الأمـر بالانابة عقب الوعد بالمغفرة ، للدلالة على أن المغفرة من ثمرات الانابة حتى لا يتكل الناس على ذلك ويطلبون المغفرة بدون توبة (٢) .

« من قبل أن يأتيكم العذاب » أى فى الدنيـا .

« ثم لا تنصرون » أى لا تمنعون من عذابه ، روى جابر عنـــه (ﷺ) انه قال : « من السعادة أن يطيل الله عمر المرء فى الطـــاعة ويرزقه الانابة ، وان من الشقاوة أن يعمل المرء ويعجب بعمله »(٣) .

٣ — مغفرة الله ذنوب الكفار اذا اسلموا وتابوا تحبيبا لهم فى دين الله وترغيبا لهم فى اعتناق الاسلام :

« قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين » .

(الانفال : ٣٨)

---

(١) البحر المحيط : ٤٣٤/٧ .
(٢) الكشاف : ٤٠٤/٣ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٠/١٥ .

« قل للذين كفروا ان ينتهوا » أى عن الكفر ، ومغفرة ما سلف من الذنوب لاتكون الا لمنته عن الكفر .. قال ابن العربى : هذه لطيفة من الله سبحانه من بها على الخلق ، وذلك أن الكفار يقتحمون الكفـر والجرائم » . ويرتكبون المعاصى والمآثم فلو كان ذلك يوجب مؤاخذة لهم لما استدركوا أبدا توبة ، ولا نالتهم مغفرة ، فيسر الله تعالى عليهم قبول التوبة عند الانابة ، وبذل المغفرة بالاسلام ، وهدم جميع ماتقدم، ليكون ذلك أقرب لدخولهم فى الدين ، وأدعى الى قبولهم لكلمة المسلمين ولو علموا انهم يؤاخذون لما تابوا ولا أسلموا(١) .

ويذكر الفخر الرازى أنه على هدى قوله (ﷺ) « الاسلام يجب ماقبله » فان الكافر اذا أسلم لايلزمه قضاء شىء من العبدات البدنية والمالية ، وما كان له من جناية على نفس أو مال فهو معفو عنه ، وهو ساعة إسلامه كيوم ولدته أمه ، ويقول يحيى بن معاذ الرازى فى هذه الآية : أن توحيد ساعة يهدم كفر سبعين سنة ، وتوحيد سبعين سـنة كيف لايقوى على هدم ذنب ساعة(٢) ؟ .

والامام أبو حنيفة رحمه الله يرى وهو ما نرجحه بناء على قواعد التوبة ، أن ما كان لله من حقوق يسقط ، وما كان للآدمى لايسقط(١) .

« وأن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » أى ان يعودوا الى قتاله ﷺ والكفر بالله ورسوله فقد حل بهم ماجرت عادة الله بصنعه مع المكذبين بالله وررسوله ، وفى العبارة وعيد وتهديد وتمثيل بمن هلك من الأمم فى سالف الدهور بعذاب الله .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧ : ٤٠٣ .
(٢) التفسير الكبير ١٦٣/١٥ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن : ٤٠٣/٧ .

٤ - الاستغفار المقترن بالتوبة :

الكافر اذا آمن بالله ورسوله (ﷺ) وتاب اليه من ذنوبـه يقبل الله توبته ، لذلك لايكفى الكافر أن يستغفر فقط ، بل لاينفعه استغفاره حيث لايتوافر الاساس الذى يقوم عليه ذلك الاستغقار وهو الايمـان بالله ، ولذلك رأينا رب العزة فى توبيخة الكفار على قولهـم بالتثليث يدعوهم الى التوبة والاستغفار معا وليس الى الاستغفار وحده وذلك فى قوله سبحانه :

« لقد كفر الذين قالوا .. ...

التحليل اللغوى والبيانى :

« لقد كفـر الذين قالوا ان الله ...

« لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح .... ذلك قول طائفـة منهم تدعى اليعقوبية وقد رد الله عليهم ذلك بحجة قاطعة مما يقرون به ، أى اذا كان المسيح هو الاله فكيف يدعو نفسه ويسألها ؟ ان ذلك محـال .

« انه من يشرك بالله » أى من يشرك به فى عبادته أو فيما هو مختص به من صفاته وأفعاله .

« فقد حرم الله عليه الجنة » التى لايدخلها الا الموحدون .

« وما للظالمين من انصار » قيل انه من كـلام الله على انهم ظلموا وعدلوا عن سبيل الحق فيما تقولوا على عيسى عليه السـلام ، فلذلك رد كلامهم وانكره وان كانوا يعظمون عيسى عليه السلام ويرفعون قدره

وقيل : انه من قول عيسى عليه الســلام على معنى : ان احدا

لايوافقكم على ماتقولون ولا يساعدكم عليه لاستحالته وبعده عن المعقول أو لا ينصركم أحد فى الآخرة من عذاب الله[1] ٠

« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » أى أحد ثلاثة آلهـة هى : الله ومريم وعيسى يؤكد ذلك قوله تعالى « أأنت قلت للناس ٠٠٠ من دون الله »[2] ٠

« وما من اله الا اله واحد » أى لا اله قط فى الوجود موصوف بالوحدانية الا اله واحد وهو سبحانه وتعالى[3] ٠

« وان لم ينتهوا عما يقولون » أى أن لم يكفوا عن قولهم بالتثليث ليمسن الذين كفروا منهم عذاب اليم « أى فى الدنيا والآخرة » ومن « للبيان ، ويجوز ان تكون للتبغيض أى ليمسن الذين بقوا على الكفر منهم لأن كثيرا منهم تابوا من النسرانية ٠

وفى وضع الظاهر موضع الضمير بقوله «ليمسن الذين كفروا» بدلا من « ليمسهم ٠٠ » فائدة وهى تكرير الشهادة عليهم بالكفر بعد : قوله : « لقد كفر الذين قالوا ٠٠٠٠٠ » وفى ذلك أوضح دليل على انهم من الكفر بمكان وقد بلغوا منه مبلغا شديدا[4] ٠

« افـــلا يتويـــون الى الله ٠٠٠٠٠٠ » أى الا يتوبون بعد هذه الشهادة المكررة عليهم بالكفر ، وفى ذلك وعيد شديد يتضمن التعجب لاصرارهم على الكفر[5] ٠

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦ : ٢٤٩ ٠
(٢) التفسير الكبير ٥٩/١٢ ٠
(٣) الكشاف ٦٣٤/١ ٠
(٤) الكشاف : ٦٣٤/١ ٠
(٥) السابق ٦٣٤/١ ٠

● وتفيدنا الآيات السابقة أمورا منها :

١ - أن الله يقبل توبة المشرك اذا أسلم وحسن اسلامه .

٢ - ان توبة المشرك تتحقق بالايمـــان بالله والندم على أيامه الماضية مع الكفر والعزم على فعل الخيرات فى الحال والاستقبال وذلك مايفيده الجمع بين التوبة والاستغفار .

٥ - طلب الله من الرسول (ﷺ) ان يأمر المشركين بالاستقامة والاستغفار

عرفنا أن استغفار المشركين يتحقق على مرحلتين يتصلان ببعضهما تمام الاتصال هما : الايمان بالله وعبادته وحده والاستغفار من الذنوب ، وفى الآيات التالية يطلب الله منه (ﷺ) ان يدعوهم الى توحيد الله واســـتغفاره .

« حـم . تنزيل من الرحمن الرحيم .. لهم اجر غير ممنون » فصـلت : ١

روى ان قريشا ارسلت عتبة بن ربيعة اليه (ﷺ) يعرض عليــه المـال والسلطان والجاه حتى يترك ديـن الله الذى يدعوهم اليــه ، وبعد ان استمع منه (ﷺ) قـرأ (ﷺ) عليه آيات من أول ســورة فصلت حتى انتهى الى السجدة فسجد وعتبة مصغ اليه وقد اعتمد على يديه من وراء ظهره ، فلما فرغ (ﷺ) من القراءة قـال لـه : يـا ابـا الوليـد ، قد سمعت الذى قرأت عليك فأنت وذاك - فانصرف عتبة الى قريش فى ناديها فلما رأوه قالوا : قـد جاءكم ابو الوليد بغير الوجـه الذى خـرج به من عندكم ، ثم قالوا لـه : ماذا وراءك يا أبـا الوليد ؟ قـال : والله لقد سمعت من محمد كـــلاما ما سمعت مثله قـط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، خلوا محمدا وشانه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لمـا سمعت من كلامه شأنا ، فان اصابته العرب كفيتموه بأيدي غيركـم

وان كان ملكا أو نبيا كنتم أسعد الناس بـه ، لان ملكه ملككم وشـرفه شرفكم فقالوا : هيهات أسحرك محمد يا ابـا الوليد فقال : هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم (١) ٠

التحليل اللغـوى والبيانى :

« كتاب فصلت آياته » أى بينت وفسرت ببيان حلاله من ــ حرامه وطاعته من معصيته أو بالثواب والعقاب ، وقيل : جعلت تفاصيل فـى معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعـد ووعيد وغير ذلك ٠

« قرآنا عربيا » منصوب على الاختصاص والمـدح أى أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنا من صفته كذا وكذا ، وقيل : هـو منصوب على الحـال ، أى فصلت آياته فى حـال كونه قرآنا عربيا ٠

« لقوم يعلمون » أى يعلمون العربية فيدركون بلاغته ويعجزون عن عن الاتيان بمثله فيثبت لهم أنه من عند الله ٠

« بشيرا ونذيرا » اى مبشرا لأوليائه ومنذرا أعداءه ٠

« فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » أى لم ينتفعوا بـه ولم يفيدوا منـه فكأنهم لم يسمعوه حيث لم يترتب على سمعهم لـه آثار طيبـة كقولك : نصحت فلانا كثيرا فلم يسمع كلامى أى لم يعمل بمقتضاه فصار كأن لم يسمع شيئا ٠

« وقالوا قلوبنا فى اكنـة ٠٠٠٠٠ » ٠

الأكنة : الاغطية ، والوقر : الثقل ٠ قيل : أن ابا جهل كان يغطى رأسـه بثوب ويقول : يا محمد بيننا وبينك حجاب ــ اسـتهزاء بـه والأرجح أن العبارة توضح على سبيل التمثيل شدة اعراضهم عن كلام

---

(١) القرطبى : ٣٣٧/١٥ ٠

الله بالتغطية على آلات التوصيل واهمها : القلب والاذن والبصر فتصير قلوبهم وقد رفضت الاذعان للحق كانها فى اغطية تمنع نفوذه اليهــا وتصبح اذانهم باعراضها عن الاستماع والتدبر كان بها صمما ، ولتباعد ما بينهم وبينه (ﷺ) من اعتقاد وفكر واتجاه حيث لا تلاقى كـان هنـاك حجابا وحاجزا من جبـل ونحوه (١) .

وتفيد « من » فى قوله : « ومن بيننا وبينك حجاب » قوة هـذا الحجاب ورسوخه وتغطيته كل المسافة بينهم وبينه فلا يسمح بتســرب شىء ولذلك يقول الزمخشرى : انه لو قيل : « وبيننا وبينك حجاب » لكان المعنى : ان حجابا موجودا وسط الجهتين ، اما مع وجـود « من » فيكون المعنى : « ان حجابا ابتدأ منا وابتدأ منك فالمسافة المتوســطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها (٢) .

ويقول الفخر الرازى : « اعلم انه انما وقع الاقتصار على هـذه الاعضاء الثلاثة ، لان القلب محل المعرفة وسلطان البدن ، والســمع والبصر هما الآلتـان المعينتان لتحصيل المعارف ، فلما كانت هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك اقصى ما يمكن فى هذا الباب (٣) .

« فاعمل اننا عاملون » أى اعمل فى هلاكنــا فانا عاملون فى هلاكك ، أو اعمل لالهك الذى ارسلك فانا نعمل لالهتنا التى نعبدها ، أو أعمل لاخرتك فانا نعمل لدنيانا .

« قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى .....

لمـا ذكـر الله قولهم : « وقالوا قلوبنـا ... » دعـا الرســول (ﷺ) .. أن يجيبهم بقوله : « قل انما انا بشر مثلكم ... » أى

---

(١) الكشاف : ٤٤١/٣ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) التفسير الكبير : ٩٧/٢٧ .

لا اقدر على حملكم على الايمان قهرا فانى بشر مثلكم أوحى الله الى برسالة ابلغها لكم ، فإن شرفكم الله بالتوحيد قبلتموه ، وان خذلكم بالحرمان رددتموه ٠

وخلاصة ما أوحى به الله الى يتمثل فى امرين هما العلم والعمل فالعلم رأسه التوحيد وهو المراد بقوله : « انما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه » أى وجهوا وجوهكم بدعائه وسؤاله بدون ميل هنا أو هناك ، والعمل رأسه الاستغفار وهو المراد بقوله : « واستغفروه » ٠

وقد جاء الامر بالاستغفار بعد الامر بالاستقامة فى توحيد الله وكان العكس ينبغى أن يكون ، وذلك كما ذكر الفخر الرازى لأنه ليس المراد من الاستغفار الاستغفار عن الكفر ، بل يراد منه ان يعمل ثم يستغفر بعده خوفا من التقصير فى العمل الذى أتى به كما قال (ﷺ) : وانه ليغان على قلبى ، وانى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ٠٠ (١) ٠

« وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » قال ابن عباس أى لا يشهدون « ان لا اله الا الله » وهى زكاة الانفس ، وقيل :

لا يتصدقون ولا ينفقون فى الطاعة ، وقيل : كان المشركون ينفقون النفقات ، ويسقون الحجيج ويطعمونهم ، فحرموا ذلك على من آمن بالرسول (ﷺ) فنزلت فيهم الآية « وهم بالآخرة هم كافرون » فلهذا لا ينفقون فى الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون ٠

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ٠٠ غير ممنون » قال ابن عباس : غير مقطوع مأخوذ من مننت الحبل اذا قطعته ، وقيل : غير منقوص ومنه المنون ، لانها تنقص منة الانسان أى قوته ٠

---

(١) المرجع السابق ٢٧/٩٩ ٠

قال السدى : نزلت فى الزمنى والمرضى والهرمى اذا ضعفوا عن الطاعة كتب لهم من الاجر كاصح ما كانوا يعملون فيه[1] .

٦ ـ عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا ذوى قربى :

ذكر القرآن فى غير موطن دعاء سيدنا ابراهيـــم عليه الســـلام بالاستغفار لابيـــه ، وقد أخذ بعض المسلمين يسألون الله المغفرة لآبائهم المشركين فنهاهم الله عن ذلك وبين أن استغفار ابراهيم لابيه كان مشروطا بوعد متفق عليه بينهما وهو أن يؤمن الأب بالله ، فلما لم يتحقق ذلك الوعد كف ابراهيم عليه السلام عن الاستغفار لابيه وتبرأ منه .

« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا ... لأواه حلـيم » ذكرت عدة روايات فى سبب نزول الآية السابقة ، فقد روى مسلم عن سعيد بن المسيب عن ابيه قال : لمــا حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله (ﷺ) فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله (ﷺ) يا عم ، قل : لا الــه الا الله اشهد لك بها عند الله ، فقال ابو جهل وعبدالله بن ابى امية : يا ابا طالب ، أترغب عن ملـة عبد المطلب فلم يزل رسول الله (ﷺ) يعرضها عليه ويعيد له تلـك المقالة حتى قال ابو طالب : لولا انى أخاف أن يعير بها ولدى من بعدى لاقررت بها عليك ثم قال : أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول : لا الــه الا الله ومات فنزلت : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء .... » [2] الآية ، فقال (ﷺ) : « لأستغفرن لك ما لـــم أنــه عنك » فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك الاستغفار لأبى طالـب [3] .

---

(١) القرطبى : ٣٤١ .
(٢) سورة القصص : ٥٦ .
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٢/١٨ .

وقيل : ان المؤمنين لما رأوه (ﷺ) يستغفر لأبى طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم فلذلك ذكروا فى قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنـــوا ... » .

وقيل : لما فتحت مكة أتى الرسول (ﷺ) قبر أمه ووقف عليه حتى سخنت عليه حرارة الشمس وجعل يرغـب فى أن يؤذن لـه فى الاستغفار لها فلم يؤذن لـه فاخبر انه اذن لـه فى زيارة تبرها ومنـع ان يستغفر لها ونزلت الآية ، وقيل : نزلت بسبب قوله (ﷺ) « والله لازيدن على السبعين » ، وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما : نزلت بسبب جماعة من المؤمنين قالوا نستغفر لموتانا كما استغفر ابراهيم لابيه [1] .

ويتضمن قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين امنـــوا .... » الآية النهى عن الاستغفار للمشركين على أى حال كانوا ولو كانوا من الاقارب والتبرؤ منهم وقطع موالاتهم ، ويفيد التعبير « بالنبى والذين آمنوا » أن النبوة والايمان لا يليق بهما بأى حال من الاحوال أن يطلبا المغفرة للمشركين .

« من بعد ما تبين لهم ... » اى من بعد ما وضح الله لهم أنهم أصحاب الجحيم لموتهم على الشرك مصداقا لقوله سبحانه :

« ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .. [2]

وقيل : ان الاستغفار المنهى عنه هنا يراد به الصلاة على المشركين ، اما الاستغفار الذى يكون دعـاء بطلب المغفرة فانه يجوز للأحياء مـن المشركين بقصد رجاء ايمانهم وترغيبهم فى الدين ، وقد ذكر كثير من العلماء : أنه لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهمـــا ماداما حيين ، فاما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يدعى لـه ويؤيده

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط ١٠٥/٥ .
(٢) سورة النساء : ٤٨ .

قول ابـن عباس : كانوا يستغفرون لموتاهـم فنزلت ، فامســكوا عن الاستغفار ، ولم ينههم أن يستغفروا للأحيـاء حتى يموتوا (١) وذلـك ما ارجحه وأميـل اليه .

٧ - استغفار سيدنا ابراهيم عليه السلام لأبيـه لوعده له بالايمـان :

« وما كان استغفار ابراهيم لأبيه ..... لأواه حليم » التوبة : ١١٤

روى النسائى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : (أو لم يستغفر ابراهيم عليه السلام لأبيه ، فأتيت النبـى (ﷺ) فذكرت ذلك لـه فنزلت : « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه ..... » الآية .

والمعنى : « لا حجة لكم أيها المؤمنون فى اسـتغفار ابراهـيم الخليل عليه السـلام لابيه ، فان ذلك لم يكن الا عن موعدة ، قـال ابن عباس : كان أبو ابراهيم وعده أن يؤمن بالله ويهجر الشرك ، فلما مات على الكفر علم انـه عـدو الله ، فترك الدعاء لـه ، فالواعد على ذلك أبـوه ، وقيل : الواعد : ابراهيم ، أى وعـد ابراهيم اباه أن يستغفر لـه ، فلما مات شركا تبرأ منه ، ويـدل على هذا الوعد قوله سبحانه على لسان ابراهيم « سأسـتغفر لك ربى » (٢) قال القاضـى ابو بكر بن العربى : تعلق النبى (ﷺ) فى الاسـتغفار لأبى طالب بقول ابراهيم عليه السلام : « سأستغفر لك ربى » فاخبره الله تعالى أن اسـتغفار ابراهيم لأبيه كان وعدا قبل أن يتبين الكفر منه ، فلمـا تبين لـه الكفر منه تبرأ منه ، فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد وقـد شـاهدت موته كافـرا (٣) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٣/٨ .

(٢) سورة مريم : ٤٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٤/٨ .

وقد ذكر القرآن دعاء ابراهيم عليه السلام بالاستغفار لابيه فى مواطن منها قوله سبحانه : « واغفر لابى انه كان من الضالين » (١) وقوله : « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين .. » (٢) وقوله : « سلام عليك ساستغفر لك ربى » (٣) وقوله : « لاستغفرن لك .. » .

ويسأل فيقال : كيف خفى على ابراهيم أن الاستغفار للكفار غير جائز حتى وعده ؟

واجيب بأنه يمكن أن يكون ابراهيم عليه السلام قد ظن أنه مادام يرجى منه الايمان يجوز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر انما علم بالوحى ، اذ أن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر فقد قال (ﷺ) لعمه : « لاستغفرن لك مالم انه عنك » . وقيل له (ﷺ) : « ان فلانا يستغفر لآبائه المشركين ، فقال : ونحن نستغفر لهم ، وعن على : رأيت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت له فقال : أليس قد استغفر ابراهيم(٤) .

« ان ابراهيم لاواه حليم » الاواه ذكرت له معان عدة منها : الذى يكثر الدعاء وهو ارجحها ، وقيل : انه : المؤمن بلغة الحبشة وقيل : انه المسبح الذى يذكر الله فى الأرض القفر الموحشة ، وقيل انه الذى يكثر تلاوة القرآن ، وقيل : غير ذلك ، وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء ، وقال كعب : كان ابراهيم عليه السلام اذا ذكر النار تأوه .

والحليم : الكثير الحلم وهو الذى يصفح عن الذنوب ، ويصبر على

---

(١) سورة الشعراء : ٨٦
(٢) سورة ابراهيم : ٤١
(٣) سورة مريم : ٤٧
(٤) الكشاف : ٢١٧/٢ .

الأذى ، وقيل : الذى لم يعاقب احدا قط الا فى الله ولم ينتصر لأحد الا لله ، وكان ابراهيم عليه السلام كذلك ، وكان اذا قام يصلى ســمع وجيب قلبه على ميلين(١) .

ويفيد ختم الآية بهاتين الصفتين لسيدنا ابراهيم عليه السـلام الاشارة الى أن ابراهيم عليه السلام مع جلالة قدره ومع كونه « اواها وحليما » منعه الله تعالى من الاستغفار لأبيه الكـافر ، فمنع غيره من الاستغفار أولى(٢) .

« دعاء سيدنا ابراهيم عليه السلام بالمغفرة لأبويه »

« ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب »

(ابراهيــم : ٤١)

قيل : استغفر ابراهيم عليه السلام لوالديه قبل ان يثبت عنـده أتهما عدوان لله ، وقال القشيرى : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله تعالى ذكر عذره فى استغفاره لأبيه دون أمه ، وقيل : استغفر لهمـا طمعا فى ايمانهما ، وقيل : أراد آدم وحواء ، وقد روى أن العبد اذا قال : اللهم اغفر لى ولوالدى وكان ابواه قدماتا كفرين انصرفت المغفرة الى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع وقيل : اراد ولديه : اسماعيل واسحاق اذ قرأ بعضهم : « ولولدى » .

« وللمؤمنين » كافة من ذريته وغيرهم » .

« يوم يقوم الحساب » أى يثبت ويتحقق ، وفى التعبير عن وقوع الحساب بالقيام ، واسناد القيام الى الحساب والذى يقوم هم النـاس أوضح تصوير ليوم القيامة ووقوف الناس للحساب بين يدى رب العـزة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٤/٨ .
(٢) التفسير الكبير : ٢١٠/١٦ .

يجعل الحساب وهو سبب لبعث الناس ووقوفهم شخصا يقوم للدلالة على عظمة الموقف ورهبته .

« استغفار ابراهيم عليه السلام لأبيه »

« قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا »

« مريــم : ٤٧)

دعا سيدنا ابراهيم عليه السلام بأدب جم وتواضع زائد اباه الى عبادة الواحد القهار ونبذ عبادة الجمادات من الاصنام والاوثان التى لاتسمع ولا تبصر ولا تضر ولاتنفع والتى تعرضه لعذاب الله وتجعله قرينا للشيطان ، فما كان من أبيه الا الصد والاعراض والاستنكار وأمر ابراهيم بالبعد فتركه ابراهيم عليه السلام بنفس الصيغة التى بدأ بها دعوته من أدب جم حيث سلم عليه ووعده أن يسأل الله لـه الايمـــان والمغفرة ، فكافأه الله مكافأة عظيمة اذ وهبه اسحق ويعقوب عليهمـــا السلام .

« قال سلام عليك » أى ألقى عليه سلام التوديع كقوله تعالى :

« واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » ، ويجوز ان يراد به الدعاء له بالسلامة استمالة له ، اذ وعـده الاستغفار .

ويسأل فيقال : كيف جاز له أن يستغفر لأبيه مع كفره وأن يعده ذلك ؟ اجيب : بأن الاستغفار له مشروط بالتوبة عن الكفر وعبادة الله وحده ، وذلك كما توجه الأوامر والنواهى الشرعية الى الكفار اذ تكون مشروطة بالايمان ، وكما يؤمر المحدث « الجنب » والفقير بالصـلاة واخراج الزكاة ويراد : اشتراط الوضوء وتوفر نصاب الزكاة — وقيل : انما استغفر له بقوله : « واغفر لأبى انه كان من الضالين »(١) اذ وعده

---

(١) الكشاف ٢/٥١٢ .

أن يؤمن ، واستشهدوا ، عليه بقوله تعالـــى : « وما كان اســـتغفار ابراهيم لأبيه ٠٠٠٠ اياه »[١] ٠

ومعنى « سأستغفر لك » أدعو الله أن يهديك فيغفر لك ٠

« أنه كان بى حفيا » اى بليغ فى بره والطافه ، وقيل : حفيك من يهمه أمرك ، ولما كان فى قوله : « لأرجمنك » غلظة وقساوة قلب قابله بالدعاء له بالسلام والأمن ووعده بالاستغفار وفاء لحق الأبوة مع ما كان منه من شدة القسوة ٠

« واغفر لأبى أنه كان من الضالين ، ولاتخزنى يوم يبعثون »
(الشعراء : ٧٧ ، ٧٨)

بعد ان فرغ ابراهيم عليه السلام من دعـــاء ربه بخيرى الدنيـا والآخرة لنفسه دعا بالمغفرة لاشد الناس اقترابا منه وهو أبوه « واغفر لأبى » وقد كان أبوه وعده ان يكون على دينه باطنا وعلى دين نمروذ ظاهرا تقية وخوفا ، فدعا له لاعتقاده أن الأمر كذلك ، فلما تبين لــه خلاف ذلك تبرأ منه ، ولذا قال فى دعائه : « انه كان من الضالين » فلولا اعتقاده أنه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك[٢] ٠

« ولاتخزنى يوم يبعثون » « أى لاتفضحنى على رؤوس الاشهاد أولا تعذبنى يوم القيامة ، روى البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : « ان ابراهيم يرى اباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة » والغبرة هى القترة ، وروى البخارى ايضا عن أبى هريرة عنه (ﷺ) : « يلقى ابراهيم اباه فيقول : يارب انك وعدتنى الا تخزنى يوم يبعثون ، فيقول الله تعالى : انى حرمت الجنة على الكافرين »[٣] ٠

---

(١) سورة الشعراء : ٨٦ ٠
(٢) التفسير الكبير ١٥٠/٢٤ ٠
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١٤/١٣ ٠

التبرؤ من المشركين اقتداء بسيدنا ابراهيم عليه السـلام

من شان المسلم ان يتبرأ من المشركين وان لا يقرهم على شركهم وأن لايواليهم اقتداء بابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه فقد تبرأ هو والمؤمنون معه من المشركين فينبغى أن نتـأسى به فى ذلك امـا استغفاره لأبيه فلا يقتدى به فى الدعاء والاستغفار للأقارب من المشركين لأنه عليه السلام لم يستغفر له الا بعد أن وعده بالايمان فلما لم يف بوعده وظل على الشرك تبرأ منه ٠

قال تعالى :

« قد كانت لكم أسوة حسـنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم أنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده الا قول ابراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ربنا عليك توكلنـا واليك أنبنا واليك المصير ٠٠ ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم ٠ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفـور رحيـم » ٠

(الممتحنة : ٤ - ٧)

التحليل اللغوى والبلاغـى :

« قد كانت لكم أسوة حسنة ٠٠٠٠٠٠ واليك المصير »

تحدثت الآيات السابقة مع مطلع السـورة عن البعد عن موالاة أعداء الله ، وجاءت هذه الآيات لتوضح أن على المسـلمين أن يقتدوا بابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك ٠

ومعنى الأسوة : الاقتداء وتطلق على الصيغة التى يقتدى بها ، وعلى الشخص صاحب تلك الصفة .

« فى ابراهيم والذين معه » أى الذين كانوا معه من المؤمنين ، لكن قيل : انه فى هذا الوقت الذى تبرأ فيه من المشاركين لم يكن معه مؤمنون يشـــاركونه فى جهاده والتبرؤ من المشركين ، فقد روى أنـه قال لسارة حين رحل الى الشام مهاجرا من بلد « نمروذ » « ما على الأرض من يعبد الله تعــالى غيرى وغيــرك[1] فيراد بمن كان معه : الأنبياء الذين كانوا قريبين من عصره عليهم السلام .

« اذ قالوا لقومهم انا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله » ، أى تتبرأ منكم ومما تعبدونه من الأصنام والأوثان ، والتعبير » بــان مع الجملة الأسمية لافادة التشدد والاستمرار فى ذلك .

« كفرنا بكم » أى لانعتد بشأنكم ولا بشأن الهتكم ، فلستم عندنا بشىء « وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبــدا حتى تؤمنوا بالله وحده » أى سنظل فى عداوة وبغضاء الى أن توحدوا الله وتهجروا الشرك فعند ذلك تنقلب العداوة موالاة .

« الا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك » استثناء من « اســـوة حسنة » أى اقتدوا بابراهيم عليه السلام فى التبرؤ من المشركين ومعاداتهم أما استغفاره لأبيه بطلب الهداية من الله له فلا يقتدى به فى ذلك لأنـه أمر خاص به عليه السلام وللأنبياء والرسل أمور يختصون بها ، أو كان ذلك لتعهد من أبيه بالايمان فلما لم يف بوعده ومات على الشــرك تبرأ منــه .

---

(١) روح المعانى : ٦٩/٢٨ .

« وما املك لك من الله من شيء » من قول ابراهيم عليه السلام لأبيه أي ما استطيع أن ارد عنك من عذاب الله شيئا أن أشركت به ٠

« ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » تعليم منه تعالى ان نجعل اعتمادنا عليه وحده وتوبتنا اليه وحده واليه وحده رجوعنا ومرجعنا ٠

« ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا انك أنت العزيز الحكيم » ٠ دعاء آخر يعلمنا به الله تعالى ، أى لاتنصـــر عدونا علينا فيظنوا انهم على حق فيفتتنوا بذلك ، أو لا تســلطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا ، والآيات الكريمة توضح أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله ، وفيها ما يدل على فضل نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء حيث أمرنا بالاقتداء به فى كل الاحوال بلا استثناء كابراهيم عليـه السـلام(١) ٠

« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخـر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد » التكرير للتوكيد ، أى لكم فى ابراهيم ومن كان معه قدوة طيبة فاقتدوا بهم ، ومن يعرض عن الانتفاع بهذه المواعظ ، فان الله ليس بحاجة اليه ٠

« عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » ٠

لما نزلت الآيات السابقة تشدد المؤمنون فى معاداة ومقاطعة أهلهم وأقاربهم من المشركين وعلم الله منهم جدهم وصـــدقهم فنزلت الآيـة السابقة فتحولت العداوة الى حب وموالاة بعد أن أسلم كثير منهم بعد فتح مكة كابى سفيان بن حرب والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ،

---

(١) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ٥٦/١٨

وحكيم بن حزام ، وقيل : « تحققت تلك المودة بتزوجه ﷺ من أم حبيبه فهدأ ذلك من عداوتهم ، وكانت أم حبيبه أسلمت وها جـرت مع زوجها « عبد الله بن جحش » الى الحبشة فتنصر ولما أجبرها على النصرانية أبت وصبرت على دينها فلما مـات زوجهـا ، بعث ﷺ الى النجاشى فخطبها عليه[1] .

وفى التعبير « بعسى » يقصد به أطماع المؤمنين وذلك على طريقة الرؤساء والقادة فى وعودهم حيث يقولون : عسى أو لعل فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك[2] .

٨ - الاستغفار باللسان فقط كذب واستهزاء بالله :

عرفنا ان الاستغفار دعاء ، وأنه يكون بالقلب واللسان ليكتب الله القبول له ، فأما من يسأل الاستغفار بلسانه فقط غير متيقن باجابـة الله له فانه يكون كاذبا ومستهزئا بالله ، وذلك كاستغفار المنافقين فى الآيات التالية :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب ..... غفورا رحيم » الفتح : ١١ .

بعد أن راى عليه الصلاة والسلام فى المنـام أنه يطوف بالبيت الحرام هو وأصـحابه أخبـر المسلمين بذلك فى الصـباح ففرحوا وأخذوا يسـتعدون للذهاب الى مكـة لأداء العمرة بالحلق والتقصير وسوق الهدى حتى تطمئن قريش الى أن المسلمين لم يأتوا لقتال وانما يقصدون اداء العمرة ، وقد أقبل كثير من المسلمين على المشاركة فى ذلك حذرا من بطش قريش وغدرها بينما تخلف عدد كبير من الأعراب

---

(١) الكشـاف : ٩١/٤ .

(٢) المرجع السابق .

حول المدينة الذين لم يدخل الايمان قلوبهم وكانوا من قبائل : « جهينة ، ومزينة » وغفار ، وأشجع ، والديل ، وأسلم ، معتذرين برعاية أهلهم وأموالهم ، وقد أطلع الله الرسول (ﷺ) على حقيقة أمرهم وأخبره أنهم كاذبون فيما تعللوا به من الاشتغال بالمال والأهل حيث كان المانع الحقيقى لهم خوف الموت والاذى على يد قريش ، وانهم كاذبون أيضا فى سؤالهم الاستغفار حيث كان سؤالهم له مجرد كلام باللسان دون تصديق له بالقلب .

التحليل اللغوى والبيانى :

« المخلفون من الاعراب » أى الذين تخلفوا عن الخروج معكم ، ماخوذ من الخلف ، وضده : المقدمون . والأعراب : سكان البادية من العرب لا واحد لـه .

« شغلتنا أموالنا وأهلونا » أى شغلنا عن الخروج معكم لقيامنا ، برعاية وحراسة أموالنا وأهلينا فليس لنا من يقوم بذلك .

« فاستغفر لنا » أى اطلب لنا المغفرة من الله عن تخلفنا معك الذى كان سببه ماتقدم منرعاية المال والأهل .

« يقولون بالسنتهم ماليس فى قلوبهم » أى ان هذا مجرد كلام باللسان ولا مكان له من القلب ، فهو كناية عن كذبهم .

« قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان اراد بكم ضرا او اراد بكم نفعا » هذا رد عليهم حين ظنوا ان تخلفهم عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضر ويجلب لهم النفع ، أى قل لهم : لا أحد يدفع ضره تعالى أو نفعه ، فلم يكن خروجكم مع الرسول يجلب لكم ضرا لم يرده الله لكم ، ولابقاؤكم مع أهلكم وأولادكم يحقق لكم نفعا لم يرده الله لكم .

« بل كان الله بما تعملون خبيرا » أى خبيرا بكل ما تعملون ، يعلم الغرض من تخلفكم ، ويجازيكم عليه .

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى أهليهم ابدا » بيان للسبب الحقيقى فى تخلفهم ، وهو ظنهم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا الى اهليهم وعشائرهم وذوى قرباهم حيث يقضى عليهم المشركون قضاء نهائيا فخفتم ان خرجتم معهم أن يصيبكم ما يصيبهم فلاجل ذلك تخلفتم وليس تخلفكم لما تذكرون من أعذار باطلة .

« وزين ذلك فى قلوبكم » أى زين الشيطان لكم ذلك .

« وظننتم ظن السوء » بأن الله لا ينصر رسوله ، واعـادة الظن لتشديد التوبيخ لهم .

« وكنتم قوما بورا » أى هالكين لفساد عقيدتكم وسوء نيتـكم مستوجبين سخط الله وعقابه .

« ومن لم يؤمن بالله .. سعيرا » كلام مبتدأ مقـرر لبوارهـم ومبين لكيفيته ، أى ومن لم يصدق بالله تعالى ورسوله كهؤلاء المخلفين فانا هيأنا لهم نارا ملتهبة ، والتعبير بالاسم الظـاهر « للكافرين » بدلا من الضمير « لهم » اعلام بان من لم يجمع بين الايمـان بالله ورسوله فهو كافر ومستحق للسعير بكفره ، وتنكير « سعير » للتهويل أى لا يمكن معرفتها ، وقيل : للاشارة الى انها « نار مخصوصـة ، فالتنكير للتنويع .

« ولله ملك السموات .... » يتصرف فى جميع خلقه بتدبيره وحكمته « وكان الله غفورا رحيما » مبالغا فى المغفرة لمن يشاء وتقديم المغفرة ، والاتيان بها على صيغة المبالغة « غفورا » وضم رحيما اليها مع الاتيان بها على صيغة المبالغة دون التذييل بما يفيد كونه سبحانه معذبا مما يدل على سبق الرحمة ما فيه .

٩ – حرمان المنافقين من نيل المغفرة والنهى عن الاستغفار لهم :

عرفنا أن استغفار الكافر لا يفيده فى دنياه وأخراه الا اذا صـدر عن ايمان وتوبة ، أما اذا كان استغفارا باللسان فقط غير مصـحوب بالايمان والتوبة فانه لا ينفع صاحبه يوم القيامة ولا ينجيه من عــذاب الله وعرفنا ايضا أن دعـاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب من خير الاعمال حيث يوكل الله له ملكا يدعو له بمثل ما يدعو لأخيه ، أما دعاء المؤمن للمنافق أو استغفاره للكافر بعد موته فمنهى عنه واستغفاره له فى حياته بنية تاليف قلبه ودخوله فى دين الله يجيزه أهل العلم ٠

« اسـتغفر لهم أو لا تستغفر لهـم ٠٠٠ والله لا يهـدى القـوم الفاسـقين » ٠

(التوبة : ٨٠)

يروى فى سبب نزول الآية ان عبد الله بن عبدالله بن أبى وكان رجلا صالحا سأل الرسول (ﷺ) ان يستغفر لابيه فى مرضه ففعل ، فنزلت ، فقال ﷺ : ان الله قد رخص لى فسازيد على السبعين فنزلت :

« سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ٠ الآيـة[1] ٠

والأمر فى قوله : استغفر لهم أولا تستغفر لهـم « يراد به الخبر بعدم الفائدة من الاستغفار لهم أو عدمه حيث لايغفر الله لهم ، وذلك كقوله تعالى : « قل انفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم[2] أى انفاقهم طوعا أو كرها سواء فى عدم القبول من الله ، ومثله قول كثير :

اسيئى بنا أو احسنى لاملومة ∴ لدينا ولا مقلية ان تقلت

---

(١) الكشاف : ٢/ ١٩٥ ٠
(٢) سورة المنافقون : ٦

أى لانلومك أحسنت الينا أو أسات ، وقد جاء الخبر فى صـــورة الأمر لنكته ، وهى ان كثيرا كانه يقول لعــــزة : امتحنى لطف محلك عندى وقوة محبتى لك وعامليني بالاساءة والاحسان وانظرى : هـــل تتفاوت حالى معك مسيئة كنت أو محسنة ـ وانفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ـ واستغفر لهم أولا تستغفر لهم ، وانظر هل ترى اختــلافا بين حال الاستغفار وتركه[1] .

وليس المقصود من ذكر العدد سبعين جعله حدا وغاية للمنع بحيث يقبل الاستغفار فوق السبعين ، بل انه جار مجرى المثل فى كلامهم ـ كقولك : لو سألتنى هذا الأمر سبعين مرة لا أقضيه لك ـ تريد انـــك لاتقضى له أمره بأى حال ولا نقصد عدد المرات التى يسألك فيها .

« ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله ... » تعليل لعدم مغفرة الله لهم بتجاوزهم الحد فى الكفر بالله ورسوله الى درجة الفسق أى ليس امتناع مغفرة الله لهم لعدم الاعتداد باستغفار الرسول (ﷺ) لهم وانما بسبب كفرهم الذى تجاوز الحد كما يشير اليه وصفهم بالفسق .

« والله لا يهدى القوم الفاسقين » تؤكد هذه الجملة السبب السابق لعدم قبول الله الاستغفار لهم ، وفيها تنبيه على عذر النبى ﷺ فى الاستغفار لهم حيث لم يعلم إذ ذاك أنهم مطبوعون على الغى لا ينفـع فيهم العلاج ، ولايفيدهم الارشاد ، والممنوع هو الاستغفار بعد العلـــم بموتهم كفارا كما يشهد قوله سبحانه :

« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ...... » الآيـــة (٢) .

---

(١) سورة التوبة : ٥٣ .
(٢) روح المعانى ١٠/١٥٠ .

فإنه قيل : كيف جاز أن يستغفر لهم وقد أخبر أنهــم كفــروا ؟
والجواب من وجوه : احدها : أن ذلك كان على سبيل التأليف لقلوبهم ليخلص « ايمان كثير منهم ، وقد روى انه لما استغفر لابن ســـلول وصلى عليه أسلم ألف من الخزرج – وقيل / فعل ذلك تطييبا لقلب ولده ومن أسلم منهم وهذا قريب مما قبله – وقيل : كان المؤمنون يســألون الرسول (ﷺ) ان يستغفر لقومهــم المنافقين فى حياتهم رجــاء ان يخلصوا فى إيمانهم وبعد مماتهــم رجــاء الغفران فنهاه الله عن ذلك وأيأسهم منه(١) ٠

الاستغفار لايكون الا من مؤمن ولمــؤمن ، فلا يقبــل الاســتغفار لمشرك ، ولا لمنافق ولو كان المستغفر لهم رسول الله (صلى الله عليــه وسلم :

« واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ٠٠٠ لايفقهون »
(المنافقون : ٥ ، ٦)

وقد قيل فى سبب نزول ذلك : أن النبى (ﷺ) لما غزا بنى المصطلق ، ازدحم على البئر التى يستقون منها وكانت تسمى :

« المريسيع » أجير لعمر رضى الله عنه وأجير لعبد الله بن أبــى فلطم اجير عمر اجير ابن أبى ، فقال عبد الله ابن ابى : أو قد فعلوها والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، اما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الا عز « يعنى نفسه » منها الاذل » يعنى رسول الله (ﷺ) ، وقال لقومه : « كفوا طعامكم عن هذا الرجــل ولا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا ويتركوه فقال زيد بن أرقم وكان من اتباع ابن أبى – انت والله الذليــل المنتقض فى قومك ، ومحمد

---

(١) البحر المحيط : ابو حيان : ٧٧/٥ ٠

(ﷺ) فى عز من الرحمن ومودة من المسلمين ، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبدا - فقال عبد الله : أسكت انما كنت العب ، فأخبر زيد النبى (ﷺ) بقوله فأقسم بالله مافعل ولا قال ، فعذره النبى (ﷺ) ، قال زيد : فحزنت فى نفسى ولا منى الناس : فنزلت سورة المنافقين فى فى تصديق زيد وتكذيب عبد الله فقيـــل لعبد الله : نزلت فيك آيـــات شديدة فاذهب الى رسول الله ليستغفر لك ، فألـــوى برأسه ، فنزلت الآيات .. أخرجه البخارى ومسلم(١) والترمذى .

التحليل اللغوى والبلاغى :

« واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله » أى يسأل الله لكم التوبة من النفاق .

« لووا رؤوسهم » أى أمالوها وحركوها استكبارا واستهزاءا .. ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون « أى يعرضـــون عن الرســـول وعن الاستغفار مستكبرين ، والفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار . والمجىء به مسندا لواو الجماعة ليشمل « ابن أبى » ومن وافقه وشاركه . سواء عليهم استغفرت لهم .... » الآية .

أى أن استغفارك لهم وعدم الاستغفار سواء لغضب الله عليهـــم وحرمانهم من مغفرته ، واستغفاره (ﷺ) لهم على تقدير مجيئهم اليه تائبين معتذرين من ذنوبهم ، وعدم استغفاره لهم على تقدير عـدم مجيئهم تائبين معتذرين من جناياتهم .

ان الله لايهدى القوم الفاسقين » أى الذين بلغوا مرحلة الكمال فى الفسق ، والاظهار فى مقام الاضمار أى الذين بلغوا مرحلة الكمال فى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ١٢٧/١٨ .

الفسق ، والإظهار فى مقام الإضمار اى قوله : « القوم الفاسـقين » بدلا من : « يهديهم » لبيان توغلهم فى الفسق والاشارة الى علة الحكم .

« هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » استئناف يبين بعض مايدل على فسقهم ، والتعبير « برسول الله » اما أن يكون على لسانهم اذ كانوا منافقين يقرون ظاهرا برسالته ، أو على سبيل التهكم والاستهزاء منهم ، أو لاشتهاره (ﷺ) بذلك اللقب الذى صار كالعلم ، أو انهم تحدثوا بغير ذلك فغير الله تعالى كلامهـم الى مايليق بنبيه الكريم من التكريم والتشريف .

« حتى ينفضـوا » الا نفضـاض : التفرق ، وحتى للتعليل اى لاتنفقوا عليهم كى يتفرقوا عنه ولا يكونوا حوله .

« ولله خزائن السموات والأرض » أى لاتنفد خزائنه والرزق بيده يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، وفى العبارة رد على زعمهم أن منع الإنفاق والتعامل مع المؤمنين سوف يصرفهم عن الرسول (ﷺ) .

« ولكن المنفقين لايفقهون » أى لايفهمون ذلك لجهلهم بالله تعالى بشئونه .

« يقولون لئن رجعنا ..... الا عز منها الاذل .

قائل هذه العبارة : ابن أبى ، ويقصد بالاعز نفسه ومن ينضم له ، وبالأذل : الرسول (ﷺ) والمؤمنون ، واسناد القول المذكور اليهـم لموافقتهم عليه ورضاهم بـه .

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » أى ان الغلبة والقوة لله ولرسوله ومن اعزه الله من المؤمنين ، والعزة خلاف الكبر فقيل : العزة : معرفة الانسان حقيقة نفسه واكرامها أن لايضعها لأمور عاجلة ، والكبر : جهل الانسان بنفسه وانزالها فوق منزلتها .

« ولكن المنافقين لا يعلمون » أى يفترون مايفترون من فرط جهلهم وغرورهم[1] .

---

(١) روح المعانى ١١٢/٢٨ .

الفصل السابع
فضائل الاستغفار

فضـائل الاستغفار

فضائل الاستغفار وفوائده أكثر من أن تحصى ، وقد عرفنا منها : ستر الله ذنوب عباده وتنقيتهم من أوضارها وأثقالها فيزول عنهم الهم وتنفرج عنهم الكرب وتنشــرح صدورهم ، وتطيب خواطرهــم وذلك مصداقا لقوله ﷺ : « من لزم الاستغفار • جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لايحتسب » •

وقد حدثنا القرآن عن فضائل وفوائد أخرى منها :

١ ــ وقاية البلاد والعباد من عذاب الله ، وذلك فى قوله تعالى :

« واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحــق من عندك فأمطر علينا حجارة من الســماء أو أئتنا بعذاب أليــم ومــا كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » ••

(سورة الأنفال : ٣٢ ، ٣٣)

٢ ــ زيادة الرزق وانتشار الرخاء وذلك فى قوله تعــالى على لسان هود عليه السلام : « **وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسـل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولاتتولوا مجرمين** » ، [١] وعلى لسان نوح عليه السلام فى قوله : « **فقلت استغفروا ربكم أنه كان غفارا • يرسل السماء عليكم مدرارا • ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا** » [٢] •

١ ــ وقاية البلاد والعباد من عذاب الله :

من المزاعم الكاذبة التى افتراها المشركون انهم لو كانوا كاذبين فى كفرهم بالنبى (ﷺ) وما أنزل الله عليه من القرآن لعاجلهم الله بالعذاب الشديد أو اهلكهم بآفة من الآفات فرد الله عليهم بأنه لم يكن

---

(١) سورة هود : ٥٢ •

(٢) سورة نــوح : ٢ ــ ٤ •

لينتقم منهم بالعذاب الشامل وفيهم رسول الله ﷺ ، وبينهم من يستغفر الله منهم أو من المؤمنين ٠

« واذ قالوا اللهم ان كان هذا ٠٠٠ أليم » الانفال : ٣٢

قيل ان الذى قال هذا هو النضر بن الحارث ، وقيل : انه أبو جهل ، وروى عن ابن عباس ان رجلا لقيه من اليهود ، فقال اليهودى : ممن أنت : ؟ قال : من قريش ، فقال : أنت من القوم الذين قالوا : « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك » الآية ، فهلا عليهم أن يقولوا : ان كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له : ان هؤلاء قوم يجهلون ٠٠ فقال ابن عباس له : وانت يا أسرائيلى ، من القوم الذين لم تجف ارجلهم من بلل البحر الذى اغرق فيه فرعون وقومه ، وانجى موسى وقومه حتى قالوا : « اجعل لنا الاها كما لهم آلهة » فقال لهم موسى : « انكم قوم تجهلون » فأطرق اليهودى مفحما(١) ٠

التحليل اللغوى والبيانى :

« وما كان الله ليعذبهم ٠٠٠ وهم يستغفرون » الأنفال : ٣٣

لما قال أبو جهل : « اللهم ان كان هذا ٠٠٠ » الآية ، نزلت : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » كذا فى صحيح مسلم ، وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبى (ﷺ) منها والمؤمنون ٠

وقد تعددت الأقوال فى تحديد المستغفرين فى قوله : « وهم يستغفرون» فقيل : «وينسب ذلك لابن عباس أنه يراد به من كانوا يستغفرون الله منهم ، فقد كانوا يقولون فى الطواف : غفرانك والاستغفار وان وقع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٩٩٨/٧ ٠

من الفجار يدفع به ضرب من الشرور والاضرار ، وقيل : ان الاستغفار راجع الى المسلمين الذين هم بين اظهرهم ، أى ما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر من المسلمين ، وقيـــل : ما كان الله ليعذب هؤلاء الكفار وفى علم الله أنه يكون لهـــم أولاد يؤمنون بالله ويســـتغفرونه فوصفوا بصفة أولادهم وذراريهم ، وقيل : ان الاســـتغفار هنا بمعنـــى الاسلام والمعنى : أنه كان معهم قوم يعلم الله أنهم سيسلمون ، منهـــــم أبو سفيان بن حـــــرب بن عبد المطلب ، والحرث بن هشام وحكيم بن حزام وعدد كثير[١] وأرجح هذه الأقوال فى نظرى هو الأول المنسوب لابن عباس القائل بأن فيهم من كان يستغفر الله ، وصريح الآية يؤكده : « وهم يستغفرون » ، وكذلك يرى أهل العلم أن مايفعله الكفـــار فى الدنيا من خير يثيبهم الله عليه فى الدنيا زيادة فى أموالهم وبركـة فى أولادهم وتجاراتهم ٠

والآيتان ترشدنا الى :

ـ ان لانتقام الله زمانا ومكانا لا يعلمه الا هو ، وأن على الناس أن لايتعجلوا ذلك الانتقام ، أو يظنوه اهمالا من الله ٠

ـ ان الرسول والاستغفار أمانان للأمـة من العذاب ، كما روى عن ابن عباس : كان فيهم اما نان : نبى الله والاستغفار أمـــا النبى فقد مضى ، وأما الاستغفار فهو باق الى يوم القيامة ٠

ـ أن الاستغفار يحفظ صاحبه من بأس الله ولو كان غير مؤمن ٠

---

(١) التفسير الكبير : ١٥٨/١٥ ٠

٢ - زيادة الرزق بالاستغفار :

أهم فضائل الاستغفار كما مر بنا : نيل المغفرة من الله بستر الذنوب ومحوها تمهيدا للفوز بالجنة ، وهناك منافع وفوائد عاجلة للاستغفار ذكرنا منها : انشراح الصدر وانفراج الضيق وزوال الهم والغم الذى تحدثه الذنوب وتفعله بصاحبها ، وبمداومته على الاستغفار ينشرح صدره وييسر خاطره بزوال ضيقة وانفراج كربه ، ومن هذه المنافع العاجلة : زيادة الله رزق المستغفر وتوسعته عليه مع البركة والخير ، وقد جاء ذلك على لسان كل من هود ونوح عليهما السلام . وقد ذكرت الآيات المتعلقة بسيدنا « هود » عليه السلام فى دعوة الأنبياء أقوامهم الى الاستغفار ، أما الآيات التى وردت على لسان نوح عليه السلام فهى :

« فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا »

وفى الايمان وطاعة الناس لربهم وخوفهم منه واستقامتهم على نهجه وشرعه خير مايجلب الخير وسعة الرزق ويوفر لهم الأمن والرخاء ويحقق لهم السعادة فى حياتهم الدنيا يقول تعالى : « **ولو أن أهل القرى أمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** »[1] ويقول سبحانه : « **وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا** »[2] ويقول سبحانه : « **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ..** »

---

(١) سورة الاعراف : ٩٦ .
(٢) سورة الجن : ١٦ ، ١٧ .

الآية (١) ، ويقول عز وجل : « **وأمر أهلك بالصـــلاة واصـــطبر عليهـــا لا نسالك رزقا نحن نرزقك والعافية للتقوى**(٢) **ويقول : « وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين »** (٣) •

ففى جميع هذه الآيات أوضح دليل على أن طـــاعة الله وذكره واستغفاره تجعل حياة الناس رخاء وأمنا وأنسا وسعادة ، قيل : شكا رجل الى الحسن الجدوبة فقال له : استغفر الله ، وشكا آخر اليه الفقر •• فقال له : استغفر الله ، وقال له آخر : أدع الله أن يرزقنى ولـــدا فقال له : استغفر الله ، وشكا اليه آخر جفاف بستانه فقال له : استغفر الله ، فسئل عن الحكمة من ذلك ، فقال : ماقلت من عندى شيئا ان الله تعالى يقول فى سورة نوح : استغفروا ربكم انه كان غفارا •••• ويجعل لكم انهارا » **الآيات** •

« فقلت استغفروا ربكم » اى اطلبوا منه المغفرة لذنوبكم الماضية « انه كان غفارا » **أى** دائم المغفـــرة للتـــائبين ، وذلك ترغيب فى الاســـتغفار •

« يرسل السماء عليكم مدرارا » أى يكرمكم بانزال المطر النافـــع الذى ــ يسقى أرضكم وزروعكم ومواشيكم فيكون سببا فى زيادة الخير ووفرة المال والزرع ، فالمراد بالسماء المطر ، لأن المطر ينزل من السماء وذلك مجاز مرسل لعلاقة المحلية •

روى أن قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله عنهـــم المطر

---

(١) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ •
(٢) سورة طـــه : ١٣٢ •
(٣) سورة الذاريات : ٥٦ ــ ٥٨ •

وأعقم نساءهم أربعين سنة فهلكت مواشيهم وزروعهم ، فذهبوا الى نوح عليه السلام يستغيثون به فقال لهم : « استغفروا ربكم .... الآيات[١] .

« يرسل السماء عليكم ... وانهارا »

وعدهم على الاستغفار بهذه الأمور الدنيوية التى جبلوا على حبها وكان لها موقعها من قلوبهم ونفوسهم حيث تتعلق النفس وتغرم بحب الكسب العاجل[٢] .

---

(١) روح المعانى ٧٢/٢٩ .
(٢) القرطبى ٣٠١/١٨ .

الفهـــــرس

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة

الموضـــوع	رقم الصفحة
الفصل الثالث : استغفار الملائكة عليهم السلام	١٧٩
١ - استغفار الملائكة للمؤمنين	١٨٢
٢ - استغفار الملائكة لجميع أهل الأرض	١٨٣
الفصل الرابع : استغفار المؤمنين بعضهم لبعض	١٨٥
الاستغفار للصحابة والمؤمنين	١٨٧
الفصل الخامس : حقيقة الاستغفار من ذنوب العباد	١٩٧
الفصل السادس : المشركون والمنافقون بين الاستغفار والمغفرة .	٢٠٧
استغفار المتقين	١٩٢
حرمان المشركين من المغفرة اذا ماتوا على كفرهم . .	٢١٢
٢ - مغفرة الله للمشركين اذا تابوا	٢١٢
٣ - مغفرة الله ذنــوب الكفـــار التى وقعـت منهم قبـل اســـلامهم	٢١٤
٤ - الاستغفار المقترن بالتوبة	٢١٦
٥ - دعوة الرسل المشركين الى الاستغفار	٢١٨
٦ - النهى عن الاســـتغفار للمشـــركين ولو كانوا أولـــى قربـــى	٢٢٢
٧ - استغفار سيدنا ابراهيم لأبيه	٢٢٤
٨ - الاستغفار باللسان فقط استهزاء بالله تعالى .	٢٣٢
٩ - النهي عن الاستغفار للمنافقين	٢٣٥

رقم الايداع ٩٣/٤١٤٠
I . S . B . N
977 - 200 - 052 - 0

دار الشباب للطباعة
١٥ شارع العباسية بالقاهرة
ت ٩٤٩٧٣٠